الكتاب المقدس والسيف

انجلترا وفلسطين من العصر البرونزى إلى بلفور

الجزء الثانى

باربارا توخمان

تعريب: د. منى عثمان
محمد طه

مكتبة الشروق الدولية

الكتـــاب المقـــدس والسـيف

انجلترا وفلسطين من العصر البرونزى إلى بلفور

الجزء الثانى

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



شارع الفتح - أبراج عثمان أمام المريلاند - روكسى القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

باربارا توخمان

الكتاب المقدس والسيف

انجلترا وفلسطين من العصر البرونزى إلى بلفور

الجزء الثانى

من خسوف الكتاب المقدس إلى: ادخلوا يا يهود
(القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر)

تعريب: د. منى عثمان
محمد طه





الفصل الأول

خسوف الكتاب المقدس
وعصر حكم السيد الدنيوى الحكيم



عندما كُسرت شوكة البيوريتانيين، خرجت جديتهم وصرامتهم من طريق الحياة، وسادت فى القرن الثامن عشر نغمة الإحياء وما يميزها من ذكاء، مع ما يميز حكم تشارلز الثانى من عدم مبالاة. وبعد خمسين عامًا من الصرامة والجدية، قررت انجلترا - بمحض إرادتها - أن تستمتع بالراحة والدعة وتمتاز بأى شىء إلا الجدية.

ولكن البيوريتانية جرت من مرحلة إلى أخرى مثل النهر الجوفى، من القرن السابع عشر وحتى بزوغها مرة أخرى فى القرن التاسع عشر، بالرغم من محاولة عزلها عن الجامعات والكنيسة المعاد تأسيسها «re - Established Church»، ودواوين الحكومة والمجتمع، إلى حد الحرمان من الحقوق المدنية، وفى عصر الانشقاق فى القرن الثامن عشر، ظهرت الأرستقراطية بدلاً منها، وكان هذا العصر هو عصر «الأرستقراطية والحرية، وحكم القانون، وغياب الإصلاح» كما أسماه ترڤيليان، عصر كلاسيكى بمعنى الكلمة من كل النواحى الأخلاقية والعقلية، وأبعد ما يكون عن العبرية.

ولو أردنا أن نؤرخ للقرن الثامن عشر، فيجب أن نكون فى حل من التاريخ الزمنى العادى؛ حيث إن القرن الثامن عشر يبدأ فعليًا من ١٦٦٠م إلى ١٧٨٠م، أى من فترة الإحياء وحتى فترة انتصار الثورة الأمريكية وبداية الثورة الفرنسية وبداية الثورة الصناعية باختراع آلة

النسيج على يد كارترايت والآلات التى تدار بالبخار على يد واتس. كان هذا العصر هو عصر المنطق والتفكير الحر. وبدأ فى ذلك الوقت تحدى العلوم للكتاب المقدس، فالجاذبية أسقطت التفاحة على رأس نيوتن وليس الرب، كما فتح چون لوك المجال للشك بمنطقه الفظيع. تحت ضغط هذه الأفكار الجديدة، ساح دور الكتاب المقدس كما تسيح قطع الزبد تحت لهيب الشمس، وقد حاولت الربوبية أن تلعب دور الكتاب المقدس، وهى تعنى الإيمان بالله بدون ديانة، وقد قدم الربانيون إلهًا يستطيع كل ذى منطق أو عقل أن يؤمن به، وهو إله ثبت وجوده بكل الأدلة الخاصة بالطبيعة، والذى ليس فى حاجة إلى معجزات أنبياء أو أى قوى غير طبيعية أو خارقة ليثبت ذاته للبشر.

وردًا على «البيوريتانية المخلصة بإزعاج»، عاد المزاج الهيلينى والذى جعل الرجال واضحى الرؤية ولكن غير مرتاحين لعدم إشباع حنينهم لسلطة قادرة على كل شىء. وعاد الحرمان الأخلاقى الذى لاحظه أرنولد فى عصر النهضة. وبينما سادت خشبة المسرح كوميديا عصر الإحياء، تُركت حكومة انجلترا فى أيدى عصابة من اللوردات بلا مبادئ. وكانت الثورة البيضاء التى أطاحت بآل ستيورات - إلى الأبد- عن العرش، وأتت بحقوق الإنسان كرد فعل عكسى ولكنها انطوت ببطء تحت درك أسفل من الأخلاقيات السياسية على يد «الچورچيون(*) الألمان – German Georges»، ويذكر وقتهم بفقاقيع

(*) من اسمهم چورچ من السلالة الألمانية التى حكمت انجلترا.

الجنوب والمدن العـفنة، وكـانت ثرواتهم من تجـارة الرقيق، وانشـغل وزراؤها بالصراع على النفوذ تحت إمرة ملك نصف مجنون، إلى الحد الذى أعمـاهم عن خسران الإمـبراطورية الأمريـكية. وبالرغم من أن النقاد قـد أطلقوا على هذا العـهد لقب الأوجسـتانى(*)، إلا أنه كان أيضـًا عـصر السُكـر والغش والدعارة. ويـقول سـويفت - الصـوت الغـاضب الوحيـد فى ذلك الوقت -: إنه فـى عالم الأجـلاف تكون الكياسة والجمال مجرد أعراف ووجهات نظر.

أما فيـما يختص بالديانة الرسميـة فقد كان عصر الكنيـسة العليا، والأدب والارتياح لخدمة هدف تقديم مناصبها الرفيعة إلى صغار النبلاء والأقارب المستـحقين. وانتهت أيام الاسـتقلالية. وبقى نظام وشـرعية كنيـسة الدولة، وإن خلت من الروح، أفـضل من فـوضى عشـرات التجـمعات الدينية التى تحكم نفـسها، وإن كانت مـخلصة. ولم يكن للكتاب المقدس حظ فى كنيسة صـورت جين أستن حارسها فى صورة «السـيد كـولينز». فـقد كـان رجـال العهـد الجـديد والقديم، مـثل البيوريتانيين، متطرفين. ولا يوجد شخص مريح أو وديع بينهم. وفى انجلترا القرن الثـامن عشر لم يستطع غضب الأنبيـاء المقدس أن يخترق ما أسماه «جيبون - Gibbon» «نعاس الكنيسة الثقيل».

ولكن تياراً قويًا من الحماس والاشتـياق إلى التقويم الأخلاقى كان

(*) كعهد أول إمبراطور رومانى: أوجستس.

يسرى تحت سطح القرن الثامن عشر الدنيوى. وكانت ميثودية وترنيم «الإخوان ويسلى – The Wesley Brothers» نتاج الزمن، إذ كان من طبقة مختلفة بقدر ما كانت خطابات اللورد تشستر فيلد لابنه، ومن الصعب الوصول إلى أى تعميم بشأن فترة تضمنت فى بدايتها «رحلة الحاج» لـ «بنيان» (Bunyan's Pilgrim's Progress) وفى نهايتها «الانحدار والسقوط» لجيبون (Gibbon's: Decline and Fall) وهما كتابان من أفضل الكتب على مر العصور. ويمثل جيبون المتشكك العالم غير المسيحى، بينما يمثل بنيان المؤمن المتحمس رسول الفضيلة، أحدهما المعرفة والآخر الإيمان، أو كما يقول أرنولد «أحدهما هيلينى والآخر عبرانى». ويعد «رحلة الحاج» أشهر كتاب مقروء فى الإنجليزية بعد الكتاب المقدس، وقد كان بالفعل بمثابة كتاب مقدس ثان، فى الكوخ إن لم يكن فى القصر. فقد تجاهلته الطبقة المتعلمة، ولكنه فى نهاية الأمر أثبت أنه كما يقول ماكولاى عنه: «الكتاب الوحيد الذى اجتمع عليه رأى الأقلية المتعلمة والعامة». ومن المثير للعجب أن يظهر مثل هذا الكتاب الدينى فى نفس العقد الذى ظهرت فيه كتب من أشد الكتب تجديفًا كزوجة ريفية لويتشرلى (Wycherley's Country Wife)، والسمسار البسيط (Plain Dealer) لنفس المؤلف. وبالرغم من انتماء بنيان للجيل البيوريتانى القديم، إلا أن كتابه ينتمى لأجيال تالية كانت تحبه وتعيشه، فقد كان وريث البيوريتانيين وجد الميثوديين – الجسر الذى حمل البيوريتانية إلى الصحوة الإيفانجليكية (Evangelical) فى القرن التاسع عشر.

ولكن بينمـا قرأ العـامة بحمـاس عن رحلة كريسـتيـان إلى البوابة المقدسـة، كان الرجل الدنيوى الحكيم هو الذى يسـود البلاد فى ذلك الوقت، وكان غير مـهتم بقدوم المسيح الذى طالما شغل البـيوريتانيين، وبالتالى لم يكن مهتمًا باستعادة إسرائيل واليهود. وكان مظهر الاهتمام الوحيد باليهود فى القرن الثـامن عشر هو العداء الذى أثاره قانون التجنيس تجاهم فى عام ١٧٥٣م، وكمـا كان يسمى بـ «قانون اليهود»، فـقد كان يتيح لليـهود تقديـم طلبات تجنيس فى البـرلمان دون أن يتناولوا القربـان المقدس. وقد حـذر أحد المـعارضيـن من أن تمليك الأراضى لليهـود سيكذب نـبوءة العهد الجديد، والتى طبقًا لترجمـة المسيحيين تقول بأنه يجب أن يظل اليهود فى التيه حـتى يعترفوا بيسـوع المسيح. وقال آخر بأنه لا يوجـد ما يضمن أن تظل المسـيحيـة هى الدين السائد إن تملك اليـهود جـزءاً كبـيراً من الأرض. وبالرغم من ذلك فقد أُقر القانون بواسطة مجلس العموم وبإجازة الأساقفة، وأقـره مـجلس اللوردات، ولكـنه قُـوبل باحـتـجـاج صـاخب من كـتّـاب المنشورات والعـامة حـتى ألغى ولـم يعد تطبـيقه إلا مع قـانون التحـرير عام ١٨٥٨م بعد قرابة المائة عام.

ويعكس التطبـيق الأولى للقانون، بغض النظر عن إلـغائه، الروح السامية للتنوير فى القرن الشـامن عشر، روح: عش ودع غيرك يعيش، وفى ذات الوقت كانت روح العـقلانية تعـمل على تحقـيق النبوءة، مما أدى للتفكيـر فى استعـادة إسرائيل. وتبيـن الكتّاب العقـلانيون الذين

كتبوا عن الدين مثل «هوبس – Hobbes»، و«هيوم – Hume»، حين اختبروا أسس المسيحية الواحد تلو الآخر، أن التفسيرات الرمزية التى جعلت من يسوع المسيح تحقيق نبوءات المسيح اليهودى المنتظر، غير عقلانية، وأن تلبيس سطور العهد القديم رموز مسيحية لأحداث ستقع بعد مئات السنين فى الكنيسة المسيحية غير مقبول عقلانيًا، وفى كتابه «كلام الفكر الحر – Discourse of Free Thinking» كتب «أنتونى كولينز – Anthony Collins» عام ١٧١٣م يقول: إن كتاب دانيال لم يكتبه دانيال وإنما أُلّف فى العصر المكابى، ويضفى هذا التفسير شكلاً جديداً تماماً على نبوءات دانيال، ووصل بعض المفكرين الخطيرين أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة (التوراة)، وكلما زادت الدراسات وتعمقت، كلما اضطروا للاقتناع بأن الأمل المسيحى فى القدوم الثانى للمسيح، هو أمل بلا جدوى، طالما اعتمد على نبوءات عبرية.

وبينما ساد المنطق العقلانى، اضمحل الأمل فى استعادة اليهود إلى جبل صهيون. وبالرغم من ذلك فقد اهتم العقلانيون بدولة فلسطين كمهد للكتاب المقدس، وبدأوا فى دراسة أطلالها ليس كبقايا أثرية، وإنما كمرآة تعكس الحياة القديمة. ومن أوائل الباحثين فى فلسطين كان «د. فولر – Dr. Fuller» الذى ألّف كتابه «مشاهد من فلسطين» والذى – بالرغم من نشره فى عام ١٦٥٠م – لم يكن له أية علاقة بالبيوريتانيين وإنما بالمكابيين. فما كان بيوريتانيًا ليكتب عن الأرض المقدسة بهذا التجرد.

ويختلف فولر عن بنى عصره بروح الدعابة الجيدة وعدم التحيز، حتى فى أيام الحرب الأهلية. ويقول عن هدفه فى الكتابة عن فلسطين: إنه للمساهمة فى فهم الكتاب المقدس. ويصف الحياة الحيوانية والنباتية والمصادر المعدنية والخصائص الجغرافية للأرض، ويصحح المعتقدات الخاطئة الشائعة، ويختم كتابه بفصل يجادل أمل اليهود فى العودة، قائلاً بأن عودتهم من النفى البابلى كانت آخر النبوءات وقد تحققت، ولا يتبقى أى وعد لهم إلا بالتحول للمسيحية وليس استعادة مؤقتة لبلدهم القديم. ويؤكد أن ذلك يجب أن يبقى حلمًا. أما بخصوص التحول للمسيحية، فغير مؤكد إن كان الله يريد ذلك، ولكن بما أنه لا توجد أدلة عكسية فلا مانع من الاعتقاد بأن الله يريده، ولذا فهو متأكد من اختفاء كل العقبات إن أراد الرب أن يفتح أعينهم لنور الإيمان فى طرفة عين. ولكنه يؤكد أنه طالما يستبعد المسيحيون اليهود من المجتمع فلن يحدث هذا التحول، فيجب التحاور قبل تحويلهم.

ويوجد كتاب آخر شهير وهو «رحلتان إلى أورشليم – Two Journeys to Jersualesm» لمؤلفه ناثانيال كراوتش عام ١٧٠٤م وهو ناشر سلسلة تاريخية يقول عنها د. جونسون: إنها مناسبة لجذب القرّاء الرجعيين. وبالإضافة لمذكرات المسافرين فقد تضمن الكتاب مذكرات قيمة عن حال الدولة اليهودية القديمة والحديثة، مثل سرد «صموئيل برت – Samuel Brett» لمجلس اليهود فى المجر، رواية عن «الوهم

الرائع» لليهود: و«وهم اليهود: ساباتاى زيفى»، ونقاش المجلس حول عـرض ماناسح فى ١٦٦٥م. كـما تضـمن مغـامرات هنرى تمبـرلاك المذكـورة فى الفـصل السـادس، ومذكـرات رحلة ١٤ إنجليـزيّاً عـام ١٦٦٩م والتى ظهرت أولاً عـام ١٦٨٣م. وكان للمجـموعة جمـهور ثابت حيث أعيد نشرها حتى إنها نشرت بلغة ويلز عبر القرون التالية، وكانت آخر طبعة عام ١٧٩٦م.

وكتـب كراوتش «الملاحظات الجـديرة بالتذكـر» تحت اسم روبرت برتون، وحاول الإجابة عن السـؤال المحير عن فلسطين: «كيف يمكن أن ينبت بلد عـقـيم مثـل فلسطين كل هذه الشـعوب المزدهـرة فى عصـور الكتاب المقدس والعصر الرومانى والبيزنطى؟».

***

الفصل الثانى

المسألة الشرقية



تصارع الإمبراطوريات فى سوريا

فى ختام القرن الثامن عشـر، بدأ الإنجليز الحرب مجدداً عند شاطئ عكا، بعد أن خسرها الصليبيون قبل ذلك بخمسة قـرون. وعلى مر ثلاثين قرناً من الحروب ظلت عكا هى القلعة الحصينة التى تحمى طريق الساحل إلى فلسطين. وفى ١٢٩١م طُرد آخر الأوروبيين بواسطة الأتراك وانضمت فلسطين والأراضى المقدسة إلى الإمبراطورية التركية.

والآن، وفجأة وبعد خمسة قرون من الغفوة الإسلامية، قصفت المدمرات البريطانية هذا الميناء الذى دافع عن أسوار المماليك بلا أمل، بينما حاصر الجيش الأوروبى المدينة براً. وفى هذه المرة، ويا للعجب! دافع البريطانيون عن القلعة ولم يغيروا عليها. فقد كانوا يدافعون مع الأتراك ضد العدو الأوروبى، ولم تكن مدافعهم مصوبة إلى أسوار عكا وإنما إلى جيش نابوليون تحت أسوار عكا.

وعادت جغرافية فلسطين تلعنها، فقد كانت على طريق الهند حيث كان يرغب نابوليون فى فرض سلطانه، ومنع عدوه بريطانيا من الاستمتاع بخيرات الشرق، وأن يحكم بلا منازع إمبراطورية الإسكندر. وكانت كل من مصر وسوريا أساسية لخططه، وبالمثل كان من الضرورى بالنسبة لبريطانيا إبقاء هاتين الدولتين خارج براثنه. وكان الجيش الذى اصطحبه نابوليون معه إلى مصر هو الجيش نفسه الذى

أعده سلفا لغزو بريطانيا. وحدا التردد - الذى اعترى هتلر لاحقًا تجاه عبور المانش فى ١٩٤٠م - بناپوليون شرقًا على أمل طعن بريطانيا من الخلف، وهى نفس الحيلة التى لجأ إليها هتلر فيما بعد.

وفى الواقع فإن التطابق شديد بين حملة هتلر وحملة ناپوليون إلى الحد الذى يجعل المرء يعتقد أنهما شيء واحد. وفى كلا العصرين حامت الاستراتيچية حول فلسطين. وفى أبسط لغة يمكن القول بأن أى طاغية متضخم - غير إنجليزى بالطبع - يحاول الاستحواذ على سيادة أوروبا، يجب الحيلولة دونه والسيطرة على الشرق الأوسط، وهذا حقيقى فى أيام ناپوليون كما هو فى أيام القيصر، وأيام هتلر، وكما هو الحال الآن(*). فيجب أن تبقى المنطقة من القاهرة إلى القسطنطينية خارج يد أى طامع فى حكم العالم، مخافة أن يستطيع تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة خاصة ويغلق الطريق إلى الشرق الأقصى. ومن الناحية الاستراتيچية، يجب أن تخضع فلسطين الصغيرة لما يخضع له الشرق الأوسط، بغض النظر عمن يحكمها. فقد كانت فى يد الأتراك ثم فى يد بريطانيا ثم إسرائيل. ولا يهم أيهم - بالنسبة لما يختص بالسياسة - طالما لم تخضع للسلطة المسيطرة على أوروبا.

(*) صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٥٦م، ثم أعيد طبعه ١٩٨٤م، ثم ٢٠٠١م.

وبالرغم من التبسيط، فهذه هى القضية المعروفة فى أوساط القرن التاسع عشر الدبلوماسية باسم «المسألة الشرقية». وقد كان للاسم مذاق ذو طابع شبه ڤيكتورى قديم، فيفكر المرء فى القلاع والحصون والمطارنة والأحداث والمعاهدات السرية والقياصرة والباشوات والباكوات والصفوة و«ديزرائيلى- Disraeli» وقناة السويس، وفى وقت ما من الحرب العالمية الأولى، خبا المصطلح مع خبو بريق العادات الدبلوماسية للقرن التاسع عشر. واليوم ممثلون جدد على المسرح - النفط والعرب وإسرائيل والولايات المتحدة - ولكن الحبكة ما زالت واحدة، مثلما كانت بريطانيا قد زرعت لافتة «ممنوع الدخول قطعيًا» على حدود الشرق الأوسط فى القرن الثامن عشر. منذ مائة عام، أخذت السياسة أسلوب الحفاظ على الإبقاء على الإمبراطورية التركية المريضة وحمايتها ضد أى قادم جديد، وبعد الانهيار النهائى للإمبراطورية فى ١٩١٨م، قررت انجلترا إحلال نفسها محل الأتراك للسيطرة على المنطقة مباشرة أو من خلال دمى عربية. وظل هذا الأسلوب ناجحًا حتى الحرب العالمية الثانية، والتى بعدها لم يعد شيء كما كان. **أما الآن فنحن أقرب من اللازم من الأحداث من أن نحكم من ستكون القوى القادمة فى الشرق الأوسط؟، هل هى القومية العربية أم روسيا؟ أم الصهيونية العالمية؟**(*). وعلى أى حال فإن اختصاص المؤرخ هو الماضى وليس المستقبل.

(*) أظن الجواب معروفًا تمامًا لفترة العشرين سنة الماضية.

ولم يكن نابوليون هو العدو الأول الذى اضطر انجلترا لاتخاذ موقف بشأن الشرق الأوسط وإنما روسيا. ويمكننا تتبع نمط غير منقطع من عام ١٧٨٠م لروسيا وهى تحاول السيطرة على تركيا، وليس على فلسطين تحديدًا. فإذا هبط ظل الكرملين على الحدود التركية، أسرعت أوروبا تجاه الشرق كما لو كانت شاعرة ببرودة وظلمة مخيفة. ويتتابع الملحقون بين السفارات وتتلاقى الوفود جيئة وذهابًا كما لو كانت أسراب نمل. وإذا ما أحصينا الحوادث والحروب والمجالس والمعاهدات والتسويات المتعلقة بعلاقات القوى مع الإمبراطورية التركية فى القرن التاسع عشر، لوجدناها استغرقت مناورات ديبلوماسية وحيلاً وطاقة أكثر من أى قضية أخرى متعلقة بالسياسة الخارجية. ويرمز هنا القرن التاسع عشر إلى الفترة من ١٨١٥م إلى ١٩١٤م، وتعتبر الفترة من ١٧٨٩م إلى ١٨١٥م مدخلاً له، وهى فترة الثورة الفرنسية ونابوليون والباستيل وواترلو.

وكان مستقبل فلسطين - التى سترى عودة إسرائيل - يرسم فى أثناء صراع القوى الاستراتيجى المتعلق بالشئون التركية. وحاموا حول الحدود كورثة غيورين ينتظرون احتضار العم الغنى، فأينما تكن الجيفة تحلق النسور. ولكن جيفة تركيا كانت عنيدة وظلت تتنفس دون أن تستطيع منع النسور الجائعة من نهش أطرافها القصية.

وكان قرار انجلترا الخاص بحتمية أن تكون النسر الأول فى الشرق

الأوسط رد فعل لطموح إمبراطورة روسـية «كاثرين العظيمة – -Cathe
rine the Great». وكانت كاثريـن العظيمة قد هزمت تركـيا فى إحدى
الحروب التى كان يدخلها ملوك القرن الثامن عشر دومًا، فأصرت على
امتلاك جـزء من الأراضى التركية والمعروفة للمؤرخين الديبلوماسيين بـ
«إقليم أوكـزاكوف – Oczakoff Disrrict»، وبذا حـجبت مـعناها عن
القـارئ الحديث حـتى يكتشـف بمساعـدة الأطلس أن أوكزاكـوف هى
الأوديسا، وأن كاثرين ترمى إلى ميناء دافئ على البحر الأسود. وشعر
«بيت – Pitt» الذى يمكن أن يكون – أو لا يكون – أعظم سياسى فى
انجلترا، أن عليه الحيلولة بين انجلترا والدخول فى الصراع القارى، وكان
يكن لكاثرين نفس الاحترام الذى يكنه رجال السياسة اليوم لخلفائها فى
الكرملين، فـأصر على ألا تحوز مـرامها، وغـامر بمستـقبله السـياسى
وبالحرب حين طلب أن تغادر كاثرين مـيناء البحر الأسود. وفشل لعدم
التفاف الرأى العام حوله، وبالرغم من فـوزه بتأييد البرلمان، حيث قال
الرأى العام لتعليل رفضه الحرب: «مكان بعيد لا نعرف شيئًا عنه». كما
قال نفـيل تشامـبرلاين عن تشـيكوسلوفـاكـيا. واضطر بيت للتراجع
وترك كاثرين تحتفظ بالأوديسا. ولكنه لفت نظر بريطانيا لانتهاج سياسة
عدم السماح بالإغارة على أى من ولايات الحكم التركى.

ولـم يعجب ذلك أغلب الإنجليز، بسبب ما أسـماه بروك كراهيتهم
لهذه الإمـبراطورية المقـززة. ولكن لم يكن لديهم خـيار سوى تـأييد
الحكم التركى السيئ أو السماح للمنـافسين بإغلاق طريق بريطانيا إلى

الهند. واختار بيت، بالرغم من أنه حتى ذلك الوقت كان الإنجليز يفضلون أى شخص سوى الأتراك. وفى حرب سابقة بين روسيا وتركيا عام ١٧٧٠م، كتب أبو بيت «إيرل تشاثام - Earl of Chat-ham» لزميل: «تعرف سيدى اللورد أننى روسى النزعة، وأعتقد أن العثمانيين سيسقطون معهم بيت بوربون فى أثناء سقوطهم». ولكن فى العشر سنوات التالية ومع خسارة المستعمرات الأمريكية، تغير الاتجاه الكامل للاستعمار البريطانى، واتجه شرقًا ليركز على الهند والطرق المؤدية إليها، ومنذ ذلك الحين التزمت بريطانيا بإفساح طريقها إلى الشرق الأوسط عن طريق تعزيز تماسك الدولة العثمانية ضد القياصرة والنابوليونات. وفى عام ١٧٩٩م، حين غزت فرنسا الشرق، عقد بيت صفقة سرية مع الباب العالى تضمن عدم المساس بمجال السيادة التركية لثمانى سنوات. ويشرح هذا كيف أتى الجنود الإنجليز إلى عكا للمحاربة فى صف الأتراك عام ١٧٩٩م.

ويعيدنا هذا إلى أمل إسرائيل، حيث إنه من يمكن أن يعلن نفسه راعيًا لمملكة يهودية مؤقتة إلا الجنرال بونابارت؟ ومن الأمور المدهشة غير المعروفة عن نابوليون هى أنه أول رئيس دولة يطالب باستعادة دولة إسرائيل على أرض فلسطين. وبالطبع فقد كان يخدم أغراضه الشخصية بلا هدف دينى يذكر. ولم يكن يهتم بالكتاب المقدس أو النبوءة، أو اليهودية أو المسيحية، فقد كان بلا دين، يرى كل الأديان سواء، وكان من السهل عليه التأسلم حين هبط بمصر لخدمة أغراضه. وكان إعلانه لليهود الذين أطلق

عليـهم «الورثة الشـرعيـين لفلسطين» مـا هو إلا خـدعة عـسكرية، كـتلك السابقـة عندما دعـا العرب للثـورة على نير الترك. ولكـن فى كل دعواه لم يستطع نابوليـون التخلص من نغمـة التفاخـر، ومد دعواه لليهـود إلى وعد باستعادة مملكة أورشليم. وكان كل هذا مـحض تمثيل. فقد نادى «انهضوا يا بنى إسرائيل، أيها المنفيون انهضـوا سريعًا، إنها اللحظة التى يمكن ألا تعود لآلاف السنين، للمطالبة بـاستعادة الحـقوق المدنية بين شعـوب العالم، تلك الحـقـوق التـى- ويا للعـار! - سـحبـت منكم لآلاف السنين، ولتـطالبـوا بتواجدكم السيـاسى كشعب بين الشعوب، وبحقكم الطبيـعى غير المشروط فى عـبـادة الرب «يهـوا» طبـقًـا لعـقـيـدتكم، علنًا ولـلأبد». وطلب إليـهم الانضمام إلى لوائه واعدًا إياهم بالأمان والمسـاندة من قبل الشعب الفرنسى لاستعادة أرضهم ولاستمرار سيادتهم عليها ضد أى قادم.

على أن هذا الإعـلان لم يعثر عليـه أبدًا، وإنما بقى محـتـواه غـير معلوم حتى وجدت نسخة منه متـرجمة إلى الألمانية، ووجدت طريقها إلى النور عام ١٩٤٠م فى أرشـيف عائلة ڤينيسـية ذات أصل يهودى كانت مع نابوليون فى حملته. وحتى حينه كانت فكرة وجود الإعلان معروفة فقط عن طريق ذكرها فى «مونيتور - Le Moniteur» عدد مايو ١٧٩٩م وهى السجل الفرنسى الرسمى.

وإذا أخذنـا فى الاعتـبار ظروف مـغامـرة نابوليون المستـحـيلة فى سوريا، فـقد كان الإعلان غـير ذى معنى، مـحض بطولة مسرحـية.

ولكنها أرست نمطًا أدى إلى ذروة بطولية أخرى وإن كانت حـقيقية فى عصرنا الحـالى، حين صارت إسرائيل فعـلاً «دولة بين الدول» ثانية. فقد صـار - بعد نابوليون - من الأمور البـديهية عند احتـدام صراع القوى فى الشرق الأوسط، أن يقترح أحدهم استعادة إسرائيل، وأن هذا الداعى لا يحلم فقط بفرض نفوذه على منطقة استراتيجية حيوية، وإنما أيضًا بضم كل سلطة الثروة اليهودية العـالمية إلى جانبه، ولم يبذل مجهوداً سياسيًا لصالح اليهود إلا كنتـاج جانبى لصراع دول أخرى، مثلمـا حدث فى أيام الانتداب البـريطانى فى فلسطين فـى القرن العـشـرين. ولكن لا يمكننـا إغفـال دور نابوليون فى هذا الشأن.

وقد كان نابوليون يسعى وراء حلم فرنسى قديم للسيطرة على تجارة الشرق منذ ١٦٧١م فى أيام لويس الرابع عشر، حين اهتم - بناءً على نصيحة «ليبنتز - Leibnitz» - الذى أراد أن يبعد عدوانه عن ألمانيا - بأن يعيد حـفر القناة الموصلة بين البحر المتـوسط والبحر الأحمـر عبر برزخ السويس. وكتب ليبنتز «يجب توجيه الضربة الحقـيقية إلى مصر.. حيث الطريق الحـقيقى إلى الهـند.. وحيث تضمن السـيادة الدائمة لفـرنسا على تجارة الشرق»، وتفوقت فعلاً فرنسا فى تجـارة الشرق بينما أهملتها بريطانيـا، لانصرافهـا إلى التجـارة مع الهند عبر طـريق رأس الرجاء الصالح.

ولكن فى القرن التـالى طمح الفرنسيـون أيضًا إلى الهند، مما أدى

إلى التناطح مع انجلترا، ومن ثم هزيمتهم فى حرب السبع سنوات ١٧٥٦ - ١٧٦٣م. وفى هذا النزاع خطط تشويسل لكى تسيطر فرنسا على مصر وجزيرة العرب لشق قناة إلى البحر الأحمر لكسب الهيمنة على سوريا وبلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا - Mesopotamia)، أى العراق، وفارس، وبذا تمحو انجلترا من الهند. وبعد قرن جاء الدور على بونابارت.

ولكن حلمه كان مختلفًا ومتوهجًا، فحلم بنفسه إسكندرًا جديدًا يعيد بناء دولة الإسكندر من الإسكندرية إلى الهند أو حتى إلى بلاد التتار. ورأى فى مصر نقطة حصينة يمكن منها تدمير بريطانيا. ويحفر «قناة سويس» جديدة تحول البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية وتحول كل تجارة الهند والشرق إلى يد فرنسا، وكانت أوروبا أضيق من تكوين إمبراطورية، ولا يتسنى ذلك إلا فى الشرق باتساعه وثرائه وتعداده. وكان الشرق هو ميدان مجد الملحمة، حيث صنعت أمجاد لا يطويها التاريخ. ولم يكن نابوليون متعطشًا فقط للتجارة، أو الثراء أو حتى السلطة، وإنما للخلود، خلود الإسكندر وقيصر. فقد قال لمؤرخه الأمين بوريان: «كل شىء هنا -يقصد أوروبا - ينسى، حتى مجدى ينحسر»، ولم يكن قد تم الثلاثين حينها، «إن هذا الركن من أوروبا صغير جدًا ولا يكفى للإمداد، يجب أن نذهب شرقًا. فقد اكتسب كل عظماء العالم شهرتهم هناك».

وفى الثلاثين من عـمره - نفس عمر الإسكندر- رحل إلـى مصر وفتح القاهرة، وحتى هزيمة أسطوله أمام نلسون، فقد تظاهر بأن شيئًا لم يحدث وبأنه ما زال بإمكانه هزيمة سـوريا ثم تركيا وفارس والهند ثم يعود إلى أوروبا بإمبراطورية جديدة ليكون سيد العالم. وفى فبراير ١٧٩٩م أخذ العريش فى شبه جزيرة سيناء بين مـصر وفلسطين وغزا فلسطين بعدها بعدة أيام، وأوقع يافا فى السابع من مارس ووصل إلى أسوار عكا فى الثامن عشر من مـارس. وقال: «إن مصير الشرق رهنًا بأسـوار عكا»، فـإذا مـا أوقـعـهـا، زحف على دمـــشق ثم حلب والقسطنـطينية. ثم يطيح بالإمـبراطورية التركـية ويؤسس إمـبراطورية جديدة عظيـمة فى الشرق تخلده للأبد. ولم يـستطع أبدًا التنازل عن هذا الحلم. وبعد ذلك بعـشرين عامًـا، حين كان يملى مـذكراته بين أحجار سانت هيلينا قال مجددًا: «حين أستولى على عكا.. أكون قد وصلت إلى القسطنطينية والهند. وأكون قد غيرت وجه العالم».

وبأحلام العظمة هذه تتزاحم على مخيلته، عسكر نابوليون فى رام الله على بعد ٢٥ مـيلاً من أورشليم، وأصـدر إعلانه لليهـود. وماذا يمكن أن يكون أفضل من ذلك «أن يعيد رجل الأقدار بناء عرش داود بجرة قلم أو ضـربة سيف، وكانـت جاذبية المكان والزمـان لا تقاوم، وأوحت الظروف لنابوليون بأنه سيدخل أورشليم بالفعل».

وضعف حصاره أمام دفاع المماليك المخيفين، مؤيدين بسرية بحرية

تحت قيادة السير سيدنى سميث. ولكن فى السادس عشر من أبريل حقق نابوليون نصراً عظيماً على جبل طبرية حين دمر جيشًا تركيًا قادمًا من دمشق لنجدة عكا. وفى الحال رأى فى خياله عكا تستسلم وفلسطين تقع بالكامل بين يديه وهو يدخل أورشليم مظفراً بالنصر. لقد كان شديد الثقة إلى أنه أرسل وفدًا رسميًا إلى فرنسا بتاريخ السابع عشر من أبريل (كما ورد فى مونيتور مايو ٢٢) قائلاً: «... نابوليون إعلانه .... ويدعو بموجبه كل يهود آسيا وأفريقيا أن يذهبوا تحت لوائه لإقامة دولة أورشليم القديمة». وصدر الإعلان فعلاً فى التاسع عشر من أبريل كما لو كان من قاعدة أركان أورشليم، حيث كان يحلم أن يكون فى ذلك اليوم. ولكن نابوليون لم يطأ يومًا أورشليم ولا حتى عكا؛ حيث إن عينه كانت معمية بآمال بالنصر والمجد والخلود، فلم ير فى موطئ قدميه - بنادق السير سيدنى سميث البريطانية. وقال بمرارة بعد انتهاء كل شيء: «لقد جعلنى هذا الرجل أخسر قدرى» فلم تسقط عكا، وكان قصف سميث وبحارته الذين جمعهم من كل حدب شديدًا، لا يقل عن دوى قصف ريتشارد(*) قبل ستة قرون. وابتلى الجيش الفرنسى بالطاعون والجوع كجيش فيليب الرابع الذى طُرد سلفًا(**). وفى العشرين من مايو اعترف نابوليون بالهزيمة وعاد أدراجه مع بقايا جيشه المثير للرثاء. وانتهى الحلم ولم تتحقق

(*) ريتشارد قلب الأسد الملك الإنجليزى فى الحروب الصليبية.

(**) فى الحروب الصليبية أيضًا.

الإمبراطورية. وكانت أمر هزائم نابوليون ولم يستطع نسيانها حتى في ذروة انتصاراته اللاحقة في النمسا.

وربما يكون قد مزق النص الأصلي لوعده العظيم لليهود في خضم مرارته، وبلا شك فقد حاول أن يغطي الموضوع كله لرفضه أن يذكّره شيء بالمغامرة المهينة. ولكن مغامرته في الشرق كانت لها نتائج مهمة، فقد أثارت اهتمامًا واسع النطاق بالشرق، مما أدى لمحاولات قيمة للاستكشاف ولشعر رومانسي. وقد اكتشف حجر رشيد - وهو مفتاح ترجمة الهيروغليفية المصرية - بواسطة واحد من مجموعة العلماء والمهندسين الذين اصطحبهم نابوليون مع جيشه لوضع خطة عمل إنشاء الإمبراطورية.

وفي عام ١٨٠٣م ذهب سيتزن إلى سوريا وأمضى عامين يتعلم لغة وأخلاق العرب؛ كي يتمكن من السفر كواحد من أبناء العرب على مدى أربعة أعوام لاحقة في فلسطين وسيناء والقاهرة والبحر الأحمر، وحتى مكة متنكرًا كحاج. ولا تجد أبحاث سيتزن القيمة المتناثرة إلا في الدوريات الألمانية أو كمخطوطات غير منشورة في المتاحف الألمانية، باستثناء مقطوعات مترجمة إلى الإنجليزية ومنشورة على أنها تعليق مقتضب عن بحيرة طبرية التي تصل الأردن بالبحر الميت. ولكن شاتو بريان أصدر أفضل ما كتب وحقق أعلى نسبة مبيعات عام ١٨٠٦م بكتابه «جدول سفر من باريس إلى أورشليم»، وقد تُرجم هذا الكتاب أيضًا إلى الإنجليزية وانتشر بين الإنجليز.

وفى ١٨١٠م رحلت السيدة هستر ستانهوب ابنة أخت وسكرتيرة ويليام بيت عن انجلترا إلى جبال لبنان حزنًا على وفاة خالها. وغير معلوم لماذا كان يتجه النبلاء شرقًا حين يعتصرهم الحزن. وقد أضفت (ليدى هستر) سمعة رومانسية سيئة على الشرق فى عصر الرومانسية. عاشت كنبية فى عزلة غامضة فى مملكة خاصة، وهبطت من القصور والحدائق التى يحرسها آلاف العبيد إلى وحشة الوحدة التى ماتت فيها بعد انتظارها لثلاثين عامًا بغلتها البيضاء لتدخل أورشليم مع المسيح، وسرعان ما أصبح من يفوته رؤيتها -من الزوار المهمين- لتقدم له الشرق، بمثابة من يزور القاهرة وتفوته رؤية الأهرام.

وأسست شركة فلسطين فى لندن عام ١٨٠٤م بهدف تعزيز بحث واستكشاف الأراضى المقدسة. ولكن بسبب خطر السفر إلى الأراضى المقدسة لم ينجز الكثير فى ذلك الوقت. واندمجت الشركة مع الجمعية الجغرافية الملكية فى ١٨٣٤م، ولكنها عادت إلى الظهور لاحقًا لجمع التبرعات لاستكشاف فلسطين، وكان لمؤسسة فلسطين أفضالها فى نشر خطابات «سيتزن»، والتى ألهمت رحلة أعظم مستكشفى القرن التاسع عشر لويس بركهاردت. ومثل سيتزن، أمضى سنوات يعد نفسه ليستطيع الحياة كبدوى من أبناء العرب ليستكشف وسط أفريقيا للجمعية الأفريقية، ولكنه مات قبل أن يستطيع أن يفعل ذلك، ولكن فى أثناء استعداده أمضى ست سنوات يتجول فى سوريا والجزيرة العربية ومكة. وكان تنكره بالغ الدقة، ودرايته بالقرآن وبأخلاق

الأهالى واسعة، ونشرت مذكراته بعد وفاته عام ١٨٢٢م تحت اسم «رحلات إلى سوريا والأراضى المقدسة والجزيرة العربية»، وكانت مذكراته أشبه بمذكرات عالم آثار، وليس لكتابه خطة تربط أجزاءه، وإنما حقائق عن عادات العرب وشخصياتهم ومحاصيلهم الحالية وصروحهم القديمة ونقوشهم الحجرية وخططهم المعمارية بناء على الأطلال، واكتشافات جغرافية وچيولوچية، ويجمع بينها من حين لآخر بأحداث الكتاب المقدس.

ولا يوجد - على النقيض لبركهاردت - مثل بايرون الذى جاء فى نفس الأعوام إلى المشرق ثم عاد ليشتهر فى وطنه، وليجعل من الشرق موضة حين ألف «رحلة حج الطفل هارولد - Child Harold's Pil-grimage» عام ١٨١٢م، و«الجياور - The Giaour» عام ١٨١٣م، وبالمصادفة تسببت رحلة بايرون فى إعادة فتح البتراء عاصمة سدوم الكتاب المقدس للتنقيب. وكانت البتراء قد هجرت لمئات السنين بعد أن كانت مزدهرة كملتقى لقوافل التجارة بين الشرق والخليج الفارسى، وذهب خريج من جامعة ترينتى وصديق لبايرون وهو ويليام بانكس بعد أن تحمس لإنجاز صديقه، إلى الشرق عام ١٨١٢م محملاً بخطابات توصية من بايرون، وقرر أن يستكشفها ربما بدافع أساطير المدينة القديمة أو مدفوعًا بشائعات دخول بركهاردت إليها. وفى رحلة لاحقة عام ١٨١٦م أخذ معه ضابطين بحريين، الكابتن إيربى والكابتن مانجليز، وبالرغم من إصرار المسئولين الأتراك على عدم التعاون،

خاصة السلطان والباشا حاكم دمشق ومحافظ أورشليم الذين رفضوا تأمين طريقه، وحتى الدليل والجمال اللذين حذراه من تعطش البدو للدماء الإفرنجية لتتداوى بها نساؤهم، إلا أن مجموعة الإنجليز تقدمت بمفردها مطمئنة لعددها وقوتها، وشقوا طريقهم إلى واحدة من أعظم عواصم العالم القديم والتى صارت ذلك الوقت خاوية موحشة، ووادياً عميقاً مغطى بالأثل والتين البرى، ولا يملأ معابدها وقبورها وقصورها سوى صدى صيحات النسور ونعيق البوم، ولكنها كشفت كنوزها بعد ذلك.

وكان هؤلاء هم الأوائل. ولم تتوال وفود المستكشفين والحجاج على الأراضى المقدسة بالفعل إلا بعد عام ١٨٤٠م. وفى أثناء ذلك، كانت لحملة نابوليون نتائج أخرى، فقد أدى ظهور أوروبيين على أرض المعارك فى الشرق الأوسط إلى تفجر الأحداث فى المنطقة، وبلغ الانفجار ذروته عام ١٨٣٠م فى شكل أزمة أوروبية حول المسألة الشرقية، مما دفع بالقوى إلى دوامة الصراع لعشر سنوات،ودنا ذلك بانجلترا وفرنسا إلى مشارف الحرب، وأعاد الشرق إلى الأذهان بعد أن كان قد نُسى منذ الحملات الصليبية.

وكان لمحمد على دور كبير فى تلك الأزمة، وهو أول مسلم جدير بالذكر منذ صلاح الدين، وقد كان ألبانيّاً غير عادى، جعل من نفسه حاكماً لمصر ثم ادّعى أحقيته فى الخلافة، وقوض الدولة التركية بلا

مساعدة قبل أوان انـدثارها بمائة عام. ولا يهمنا أنه هز عواصم أوروبا بقدر ما يـهمنا أنه جر بريطانيا للأبد إلى الشـرق الأوسط، ووفر أول فرصة للمجهود الإنجليزى لإعادة غرس اليهود - وكان ذلك مصطنعًا- فى إسرائيل. وذكـر تجربة «اللورد شافتـسبرى - Lord Shaftesbury» مع بدايات الصـهـيـونيـة أنسب فى الفـصل التـالى، ولكن لا يمكن تقديمها إلا فى ظل ظروف قصة محمد على.

وكان الشغـل الشاغل هو «مَن يحتل الطريق إلى الهند؟» كـما قال «لورد بالمرستون - Lord Palmerston»، وقد ظهر محـمد على فجأة من حيث لا يدرى أحد، ليصير واليًا أقـوى من خليفته وعلى استعداد للإطاحة بحكمه ليعلن نفسه حاكمًا مستقلاً لدولة إسلامية تشمل مصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية، وسـاندت روسيا عدوها تركيا ضد هذا التحـدى الجسور لتفـرض الحماية على البـاب العالى وتضم الدردنيل لهـا. وكانت فـرنسـا ما زالت تتطـلع لحلم نابوليـون بالسيـادة على الشرق، فـفرضت حمايتـها على محمـد على، النسخة الشرقـية من نابوليـون والذى أوشك أن يحقق ما فـشل بطلهم فى تحقـيقـه. وكان على بريطانيـا أن توقف الأطـراف الثلاثـة كى لا يسـيطروا على هذه المنطقة الحيوية، وتبعًـا لبالمرستون فقد فضلت بريطانيا حـاكمًا عجوزًا واهنًا تركيًا على شاب مستقل ذى توجه فرنسى قابعًا فى طريق الهند.

ومما يثير الدهشة أنه لولا الإنجليز لانتهى محمد على قبل أن يبدأ،

ففى ١٧٩٨م أنقذه مركب السير سيدنى سميث من الغرق حين كان جنديًا يحارب ضد نابوليون، ولكن أدميرال بريطانى آخر دمر حلم إمبراطورية محمد على بعد ذلك بأربعين عامًا عند أسوار عكا. وكان محمد على قد ظهر كرجل مصر القوى بعد تراجع نابوليون، وفى ١٨٠٥م صار باشا مصر، ومد حكمه إلى السودان وشبه الجزيرة العربية بما فى ذلك مكة والمدينة، وفى ١٨٣٠م صار له جيش وأسطول مدربان على يد الضباط الفرنسيين ليتحدى السلطان، وفى طريقه الدامى صارت فلسطين مجددًا أرضًا للمعارك.

وفى الأول من نوفمبر عام ١٨٣١م عبر الجيش المصرى حدود سوريا وقابل الأسطول المصرى بقيادة إبراهيم بن محمد على فى يافا، وانطلقوا فورًا لفرض الحصار على عكا. وفى هذه المرة سقطت عكا، وكان قد أخذ غزة وأورشليم أيضًا، فمضى قدمًا إلى دمشق وحمص وحماة وحلب. وفى صيف ١٨٣٣م صار سيد سوريا وأصبح يهدد القسطنطينية، وارتعد السلطان فاستعان ببريطانيا عارضًا التحالف معها لحمايته. ولكن بالمرستون فكر فى إمكانية أن يصبح محمد على محميًا بريطانيًا، ومثل الغريق يتعلق بقشة، قبل السلطان مساعدة عدوه القديم روسيا، وأصبح الجنود الروس فى البلاط، وظهر الجنود الروس فى الشوارع، ودبر مهندسون روس التحصينات، فكتب السفير الإنجليزى لدى تركيا- لورد پونسونبى- إلى بريطانيا: «من الواضح أن تركيا قد صارت ولاية خاضعة لروسيا»، والأسوأ هو: علامَ اتفقت تركيا مع

روسيا بشأن المضـايق؟»، حتى بات سفيرا فرنسا وانجلتـرا يتوقعان رؤية أسطول روسيـا الكريه من النافـذة، ولم يكن الخوف من روسـيا على غير وجه حق، حـيث كانت اتفاقية روسيا وتركيـا السرية تتضمن بندًا ينص على أن تغلق تركيا الدردنيل فى وجه أى سفينة حربية أخرى بناءً على طلب روسيا.

وكان هجـوم پالمرستون شديدًا، واتفق پونـسونبى على أنه من الخطأ الاعـتقـاد بأن روسيـا يمكن أن تكون معـتدلة فى هذه الأمـور، أو أن تتوقف عن استغلال تركيا، وأصبح قمع تقدم روسيا هو الشغل الشاغل الذى صار على وشك جلب «الحرب الكريمينية – The Crimean War» بعد ذلك بعشرين عامًا، وضغطت انجلترا لتحـشد قوة مجمعة لاستبدال التدخل الـروسى بقوى متـحدة تحل الأزمـة المصرية التـركيـة برد فعل جماعى، وتسد الطريق على أى غارات فردية بأى ثمن. وأوقف محمد على بشكل مـؤقت، ولكنه عـاود المحاولة فى ١٨٣٨م ومـحا الجـيش التركى الذى وقف أمامـه فى سوريا، واستسلم الأسطول التـركى أمامه فى الإسكندرية، ومـات السلطان الـعجـوز حـزينًا فى القـسطنطينيـة. وأذاعت فرنسا انتـصارات الباشا، وبدا كـما لو كان قريبًا سـيكون سيد إمبـراطورية تضاهى إمـبراطورية صـلاح الدين، ولكن القيـصر تدخل لإفساد الأمـر، خاصة وأن ذلك كان يوسع الهوة بين بريطانيـا وفرنسا، ولذا فقـد تضامن مع خطة پالمرستـون لرد الفعل الموحد مع بروسـيا(*)

(*) جزء من ألمانيا القديمة.

والنمسـا، حتى وإن تنازل عن مزاياه في المضـايق. وبينما كانت فـرنسا تحتفل بانتصارات محمد علي، كانت القوى الأربع تتحالف سرّاً لمناصرة تركيـا ولإجبار مـحمد عليّ على الاكـتفاء بمصـر وجنوب سوريا طوال حياته، واغتاظت فرنسا حتى أوشكت على إعلان الحرب، إلا أن الثورة قامت ضـد الطاغيـة إبراهيم في سوريا. وتشكل أسطول إنجليـزي يؤيد الثورة، واقـتنص بيروت، وتركت سرية برية بقـيادة السير تشـارلز نابير لاقتناص صيـد، ثم وجهت مدافعـها صوب أسوار عكا الشـهيرة وهُزم إبراهيم دونما حصار، وتهاوت إمبراطورية والده كبيت من أوراق اللعب .. وانتهى الأمر باستهزاء بالمرستون بفرنسا.

وكما راهن بالمرستون فإن فرنسـا ولويس فيليب لم يكونا مستعدين لخوض حرب لأجل المسألة الشـرقية، أو السراب الذي طالما أفلت من فرنسا. ونجح في اسـتعادة سوريا وشـبه الجزيرة العربية لـلباب العالي وتحجـيم مـحمـد علي المسن الذي ما لبث أن جُن ومـات. وفي هذه الظروف حلت الأزمـة في ظل تعاهـد خمس قـوى أصبـحت فرنسـا إحداها. ووقـعت المعاهدة فـي لندن عام ١٨٤١م، وتم الحفـاظ على الإمـبراطورية التـركيـة المتـهالكة بشكـل مؤقت، وأنقـذت من براثن النسـور، وكان انتـصاراً لا تشـوبه شائبـة لبالمرسـتون، وفـتح طريق لبريطانيا إلى السويس وأورشليم.

***



الفصل الثالث

رؤية اللورد شافتسبرى

إسرائيل أنجليكانية:

مسيحية طبقًا للكتاب المقدس



لقد كتب اللورد «بالمرستون» خطابًا لسفيره فى القسطنطينية عن اليهود، وسط محاولاته لمنع انهيار مفاجئ للإمبراطورية العثمانية. قال فى خطابه: «يوجد فى الوقت الحالى بين اليهود المتفرقين فى أنحاء أوروبا شعور قوى أن الوقت يقترب بالنسبة لأمتهم كى تعود إلى فلسطين... وسيكون مهمًا للغاية بالنسبة للسلطان أن يشجع اليهود للعودة والاستقرار فى فلسطين؛ لأن الثروة التى سيعودون بها إلى فلسطين سوف تزيد من الموارد الموجودة فى البلاد التى يحكمها السلطان، ومن ناحية أخرى، فإن اليهود إذا عادوا تحت تصديق ودعوة وحماية السلطان، سوف يكونون بمثابة اختبار لأى نوايا سيئة مستقبلية من ناحية «محمد على» أو خليفته..... وعلىّ أن أنصح سيادتكم بشدة أن تشيروا على الحكومة التركية بتقديم كل التشجيع ليهود أوروبا بالعودة إلى فلسطين».

وكما رأى وزير الخارجية، فإن اليهود، حيث إنهم سيمنحون مساحات من أراضى وطنهم القديم، سيكونون بمثابة الدعامة وسط البناء الواهى الآخذ فى الانهيار، وهو الإمبراطورية التركية. وسوف يقوم اليهود بمجهود كبير من أجل البقاء على هذا البناء قائمًا، وهذه كانت سياسة بريطانيا فى هذا الشأن.

ولقد كان خطاب «بالمرستون» بتاريخ ١١ أغسطس سنة ١٨٤٠م. وفى ١٧ أغسطس نشرت «التايمز» خطة رائدة «لزرع اليهود فى أرض آبائهم»،

وأن هذه الخطة، كما تقول الجريدة، تمر الآن بفحص سياسى جاد. لقد أشادت الجريدة بأن مجهودات اللورد «آشلى» صاحب الخطة (الذى أصبح فيما بعد لورد «شافتسبرى») مجهودات عملية وحكيمة. وقد نشرت الجريدة إحصائية كان يقوم بها «آشلى» عن رأى اليهود؛ لكى يعرف شعورهم نحو موضوع العودة إلى الأرض المقدسة، ومتى سيكونون مستعدين للعودة، وما إذا كان اليهود «ذوو المال والجاه» سوف يشاركون فى العودة ويستثمرون رأس المال الذى لديهم، لو تم إقناع الباب العالى أن يعد اليهود بتوفير القانون والعدالة والأمن لهم ولأراضيهم، وأن حقوق اليهود وامتيازاتهم «سوف يتم تأمينها تحت حماية القوة الأوروبية».

لم يكن هناك شك حول مَن القوة الأوروبية التى تقصدها «التايمز». لقد خلق هذا المقال نوعًا من الإثارة. لقد سجل اللورد «آشلى» فى مذكراته بعد ١٢ يومًا من هذا المقال قائلاً: «إن الجريدة تنشر سيلاً من الوثائق عن اليهود... يالهول المؤامرات والنزاعات التى تلوح فى الأفق!... ياله من عنف، ويالها من كراهية ويالها من تركيبة شعورية ويالها من مناقشات! يا لكل عاطفة وكل شعور يوجد فى قلوب الرجال!».

من الواضح أن كلاً من «بالمرستون» وجريدة «التايمز» لم يصل إلى نفس الفكرة فى خلال أسبوع واحد عن طريق الصدفة المحضة، بل إن

كلاً منهما تم قيادته إلى هذه الفكرة ودفعه إليها وإقناعه بها وتحمسه لها. وكان ذلك عن طريق «أنتونى آشلى كوبر» إيرل «شافتسبرى» السابع، والذى أصبح أكثر الشخصيات غير السياسية نفوذاً فى العصر الڤيكتورى (عصر الملكة ڤيكتوريا) بعد «داروين».

لقد كانت دوافعه دينية، وليست إمبريالية مثل دوافع وزير الخارجية. لقد كان «شافتسبرى» يمثل الكتاب المقدس، و«پالمرستون»، إذا جاز لنا القول، يمثل السيف. لقد كان الزمان هو سنة ١٨٤٠م، والمكان هو سوريا، الأرض المقدسة فى عصر سابق، والمركز الجغرافى للمداخل المتنافسة للإمبراطورية. ومن هنا تصور «شافتسبرى» إمكانية وجود إسرائيل أنجليكانية (طبقًا للكتاب المقدس) يتم استعادتها بواسطة انجلترا البروتستانتية، ومن ثم يمكن تفنيد البابوية وتحقيق النبوءة وخلاص البشرية فى وقت واحد. وبالطبع سوف يكون «پالمرستون» سعيداً إذا أمكن إرباك الفرنسيين وإنقاذ الترك فى نفس الوقت.

لقد قيل عن اللورد «شافتسبرى»: إن وجهه كان الأكثر نقاءً وشحوبًا وجلالاً فى «ويستمينستر»، فإن وجهه الكلاسيكى البارد كان دائمًا ما يوحى بمقارنة بينه وبين تمثال وجهه من الرخام. وكما قال أحد معارفه، فإن كل خصلة سوداء فى شعره كانت تبدو أنها تجعدت من فرط إحساسه بالواجب. ومع ذلك فإن ذلك الرجل المثالى ذا المقام الرفيع كان فى الحقيقة رجلاً رءوفًا عطوفًا شديد التدين، وقد أسس

حياته على الاتباع الحرفى للكتاب المقدس. وكان يقول عن الكتاب المقدس: «إنه كلام الله المكتوب من أول حرف فيه إلى آخر حرف ومن آخر حرف إلى أول حرف... ولا شيء غير النص المقدس يمكنه تفسير نص مقدس آخر. لقد كنت سأرفضه لو أنه جاء لى من عند إنسان. ولكننى أقبله وأؤمن به وأباركه حيث إنه نص مقدس... ومثل بنى إسرائيل فإننى أحنى الرأس وأتعبد». وهذا ما جعل «شافتسبرى» رجلاً محبًا للخير. فالكتاب المقدس هو الذى جعله كذلك، لقد كان اللورد «شافتسبرى» من أبناء الطبقة الأرستقراطية الحاكمة، وقريبًا بالمصاهرة لرئيسى وزراء (الويج) العظيمين فى عصره، وكان الحزبان يسعيان وراءه من أجل قبول منصب وزارى، ولكنه كان دائمًا ما يرفض من أجل التفرغ لأعماله الخيرية، وهذا ما جعل «شافتسبرى» تجسيدًا لاستخدام النفوذ فى أعمال الخير. لقد كان يؤمن حقًا أنه حامٍ لإخوته المواطنين خاصة المعدمين منهم. لقد كان يؤمن حقًا أن منحه هذه الرتبة والقدرة والنفوذ يلزمه مساعدة الفقراء المعدمين. لقد كان يؤمن حقًا أن أعمال الخير والحب التى تعظ بها الأناجيل هى خلاصة ما يحتاج الإنسان أن يعرفه أو يمارسه، وكان هو شخصيًا يمارس هذه التعاليم. لقد كان «شافتسبرى» هو الذى أدخل «مشروع قانون العشر ساعات» (لائحة العمل بالمصانع والتى تمنع العمل لأكثر من عشر ساعات) خلال البرلمان، والذى يرجع له الفضل فى إخماد الثورة العمالية فى المقاطعات الصناعية. كما أدخل أيضًا لائحة المناجم ولائحة الأمراض

العقلية ولائحة مساكن الإيجار، التى أسماها «ديكنز» أفضل تشريعات تم تنفيذها فى انجلترا حتى ذلك الحين.

وقد يتساءل القارئ: ما علاقة كل هذا بفلسطين؟ الفكرة تكمن فى أن حماس «شافتسبرى» لليهود، الذين كان ينظر إليهم على أنهم «شعب الله القديم»، كان ينبع من اتباعه الكتاب المقدس الذى جعله ذلك الإنسان المحب للخير.

لقد كان يعمل على إعادة اليهود لفلسطين بنفس الجدية التى كان يعمل بها لإدخال «قانون العشر ساعات»، رغم أن معظم الناس الذين سمعوا عن اللورد «شافتسبرى» لا يعرفون ذلك، ولكن برغم كل ذلك الحماس فى صالح اليهود، فهناك شك ما إذا كان اللورد «شافتسبرى» كان يفكر فيهم كأناس لهم لغتهم الخاصة وتقاليدهم الخاصة وتوراتهم الخاصة وشريعتهم الخاصة وقوادهم الروحانيين الذين ظلوا يوقرونهم عبر مئات الأجيال. بالنسبة له ولكل أعضاء مدرسة «إسرائيل من أجل تحقيق البشارة» فإن اليهود هم ببساطة الأداة التى من خلالها يمكن أن تتحقق بشارة الكتاب المقدس. اليهود بالنسبة لهم ليسوا شعبًا، ولكن خطأً جماعيًا فى حق المسيح، ويجب أن يتم إقناعهم بالإيمان به حتى يمكن للعجلة التى سوف تؤدى إلى الرجوع الثانى للمسيح وخلاص البشرية أن تدور.

وكما يقول اللورد «شافتسبرى» لكاتب مذكراته الذى اختاره وهو «إدوين هودير – Edwin Hodder» فإن الإيمان بعودة المسيح «كان دائمًا مبدأ محركًا فى حياتى، فأنا أرى كل شيء يحدث فى العالم يمهد لهذا

الحدث العظيم». وقد كتب هو شخصياً: «لماذا لا تصلى من أجل ذلك فى كل وقت نسمع فيه دقة الساعة؟». وحيث إن عودة اليهود لفلسطين جزء لا يتجزأ من هذا الحدث العظيم كما يقول الكتاب المقدس، فإن «شافتسبرى» كما يقول «هودير»: لم يساوره الشك أبداً فى أن اليهود سوف يعودون إلى وطنهم... وكان ذلك دعاءه اليومى وأمله اليومى. «صلوا من أجل سلام القدس!» كانت هى الكلمات المحفورة على الخاتم الذى كان يرتديه «شافتسبرى» فى يمينه.

ومثل كل الرجال الذين يتملكهم إيمان قوى وراسخ، فإن «شافتسبرى» شعر بلمسة الرب على كتفه تحثه على العمل شخصياً من أجل ذلك «الحدث العظيم». وكان «شافتسبرى» فى رفقة عظماء العصر الفيكتورى لا يشك أبداً فى إمكانية استخدام البشر كأداة لتحقيق أهداف إلهية. هذا المبدأ لم يكن مقبولاً لدى اليهود. وظل كذلك حتى أوائل سنة ١٨٦٠م. فى السابق كان المسيحيون يستعجلون بشدة عودة مسيحهم، إما لأنهم كان يشعرون أكثر بالحاجة إلى الخلاص، وإما لأن روح التسليم بالقدر بعد طردهم من الأرض المقدسة فى الحروب الصليبية لم تكن قد أصابتهم بعد. لقد شعروا بأهمية الحدث مرة أخرى فى انجلترا أثناء «الصحوة الإيفانجليكية»، فقد عادت حركة البندول إلى الناحية الأخرى من بعد الهيلينية التى اتسم بها القرن الثامن عشر، إلى النزعة العبرية الجادة مرة أخرى.

مع حتمية العودة إلى العبرانية، فإننا نجد «شافتسبرى» يستخدم نفس عبارات جماعات أصحاب الحناطير (الكارتات) والبيوريتانز المتشددة فى التعبير عن تأييده لاستعادة إسرائيل. لم يكن ذلك لأن العبرانية بمقياس «ماثيو أرنولد» لها أى علاقة باليهود الحاليين، ولكن لأن هذه المبادئ والمعتقدات موروثة من العهد القديم. وكلما عاد المسيحيون إلى العهد القديم، وجدوا أنه يبشر بعودة شعبه (اليهود) إلى أورشليم، وشعروا أن عليهم واجب المساعدة فى تحقيق هذه البشارة.

لقد كانت انجلترا فى زمن «شافتسبرى» على علم بالكتاب المقدس، كما كانت فى زمن «كرومويل»، إن المناخ الدينى قد تهيأ تقريبًا بشكل كبير منذ تلك الأيام العارضة التى تولى فيها «بيت» عقد اجتماعات الوزارة أيام الآحاد.

خلال القرن الثامن عشر، توهجت النزعة الدينية القديمة للبيوريتانز فقط عند جماعة الـ «Nonconformists». لقد عادت هذه النزعة الدينية إلى المسيحية بعد صدمة الثورة الفرنسية «الملحدة» لتدفئ القلوب المسيحية الباردة وتملأها بالورع. وبدأت هذه الصحوة التبشيرية تؤثر بشكل كبير فى الطبقة العليا التى أصبحت تهئ نفسها معنويًا وسياسيًا - بحرص شديد - بسبب الخوف مما كان يحدث فى فرنسا. ومن أجل تجنب الابن الفظيع للمدرسة العقلانية، الثورة، فقد كانت هذه الطبقة مستعدة للانضمام اللافكرى إلى المذهب الإيفانجليكانى حتى لو تطلب

الأمـر الإيمان والأعمـال الصالحـة والارتيـاب فى كل ما هو ملحـد. وأصبح الذهاب إلى الكنيســة والوعظ والإيمان المطلق بالكتاب المقدس من مظاهر الذوق الرفيع مرة أخـرى، لقد اقتطف تريفيليان نصّاً من أرشيف السجل السنوى فى انجلتـرا لسنة ١٧٩٨م يقول: «لقد أصابت الدهشة أفراد الطبقة الدنيا فى جميع أنحاء انجلترا حينما رأوا الساحات المؤدية إلى الكنائس مليـئة بالعـربات، وهذا المظهر الجديـد جعل أهل الريف البسطاء يتساءلون عما يحدث». كل ما فى الأمر أنه قد ظهرت «روح البيـوريتانز مـرة جديدة – Neo - Puritanism»، وأصبح على انجلتـرا أن تحـقن نفـسـهـا بجـرعـة من الورع مـرة أخـرى. وكـان الإيفـانجليكيـون مثل البـيوريتـانز محلاً للسـخرية بسبـب هذه النزعة الدينية، والشعور بأن لديهم مهمة دينية معينة، والوعظ المستمر والتعبد أيام الآحاد والـتحدث بالكـتاب المقدس. وهـناك أمزوحة قـيلت عن صراع «البيـوريتانز -Puritans» مع الأسرة الحـاكمـة: إن أحد طرفى الصراع مـخطئ ولكنه رومانسى، والطرف الآخـر على صواب ولكنه مثير للاشمئزاز.

وعلينا أن ننظر إلى الإيفـانجليكيين من نفس المنظار. لقـد لاصق المزيد من السخرية سمعة اللورد «شافـتسبرى»؛ حيث إنه كان النموذج الأصلى للإيفانجليكيين والزعيم المعترف به لحزبهم. ومما يؤلم المؤرخين الاقـتـصاديين والماركـسـيين و«الفـابيين – Fabians» أنهم يعـترفـون أن «مشـروع قانون الـعشر سـاعات» الذى يعـتبـر التشـريع الأساسى للائـحة

العمال في القرن التاسع عشر، جاء من أحد نبلاء الطبقة العليا نتيجة مشاعره الخاصة تجاه الإنجيل. ومما يؤلمهم أيضًا أنهم يعترفون بأن إلغاء تجارة الرقيق لم يتحقق بسبب قانون المكسب والخسارة التجاري، وإنما تحقق نتيجة للنزعة الإنسانية الجديدة لدى الإيڤانجليكيين. ولكن إذا أخذنا مثلاً لأحد المؤرخين الذين لا يتعلقون بأحبال الاقتصاد مثل «هاليڤى» نجد أنه يقول: إنه من المستحيل المغالاة في تقدير تأثير الإيڤانجليكيين في عصرهم. لنفرض أنهم لم يكونوا مفكرين أو راجحي الفكر أو يمتازون باللياقة أو الأناقة، ولنفرض أنهم بما فيهم اللورد «شافتسبرى» كانوا إلى حد ما سخفاء، لكنهم كانوا هم الأساس في أوائل العصر الڤيكتورى، وقد استمر أثرهم طويلاً بعد أن ولت أيامهم. حتى أعداء الدين في القرن التاسع عشر كانوا متدينين. وزلزلت المعركة الطويلة بين الإيمان والعلم، أو بين المدافعين عن الكتاب المقدس كوحى وبين الذين يكشفونه كتاريخ، العصر الڤيكتورى، وفرقت بين العائلات والأصدقاء كما لو كانت حربًا أهلية. ولكن كلا الجانبين كان لديه نفس الشعور بجدية ونبل الهدف الذى توارثوه من البيوريتانز. لم تكن هناك أى مبادئ منحلة أو متحررة لدى أى من الفريقين.

لقد أصبح في أيامنا هذه تقريبًا من المستحيل أن نقدر بإنصاف دور الدين في التاريخ السياسى والاجتماعى والاقتصادى في الماضى. نحن لا نستطيع أن نحكم على دور الدين لأننا نفتقده. إن الدين ليس جزءًا من

حياتنا على الأقل بالمقارنة بدور الدين فى الحياة قبيل القرن العشرين. ولكن القرن العشرين هو وليد القرن التاسع عشر، وإذا كانت انجلترا فى القرن العشرين تتولى إعادة إسرائيل إلى فلسطين؛ فذلك لأن المحرك الرئيسى للقرن التاسع عشر فى مجمله هو الدين. لقد اختار «تريفيليان» هذه الشخصيات الأربع، «شافتسبرى»، و«جلادستون - Gladstone»، و«الجنرال جوردن - General Gorden»، والدكتور «ليفينج ستون - Living Stone» كأبرز أربع شخصيات فى ذلك العصر؛ لأن كلاً منهم اعتبر الحياة تجربة دينية، أما «ستارتشى - Strachey» سواء اعترف بذلك أم لا «فإن الشخصيات الأربع الفيكتورية البارزة التى اختارها هم: «الكاردينال مانينج - Cardinal Manning» ، و«فلورنس ناتيينجيل - Florence Nightingle»، والدكتور «أرنولد - Dr.Armald»، والجنرال «جوردن» لنفس السبب. كل من «جلادستون» و«مانينج» لهما بدايات إيفانجليكية، ورغم أن أحدهما انتهى به الأمر إلى الكنيسة العليا والآخر إلى الكنيسة الرومانية، فإن كليهما اعترف بفضل «شافتسبرى». وفى الحقيقة لقد أسماه «مانينج» الشخصية الممثلة للعصر.

كان اللورد شافتسبرى يصرح قائلاً: «أنا إيفانجليكى الإيفانجليكيين». لقد كانت حركة تبشيرية. لقد عقدوا العزم على أن يحولوا كل مَن هو ليس مسيحيًا إلى المسيحية حتى يشاركهم الخلاص، خاصة اليهود.

فاليهود بالنسبة لهم هم العامل الذى توقف عليه كل شىء، بدونهم لن يتحقق الرجوع الثانى للمسيح. فاليهود هم العامل الأوسط فى القياس المنطقى الذى لا يمكن فصله بالنسبة للإيڤانجليكيين.

فنبوءة الكتاب المقدس = عودة إسرائيل وتحولها للمسيحية = القدوم الثانى للمسيح. وبالطبع كان على الإيڤانجليكيين تنحية خطر أصحاب المذهب العقلى الذى إذا سمح لهم بتفنيد هذا القياس لضاع كل شىء؛ حيث إن أصحاب المذهب العقلى كانوا ينفون العلاقة بين العهد الجديد والقديم من حيث بشارة عودة المسيح، ويتركون بينهما العلاقة التاريخية فقط. وهذا ما كان يدركه اللورد شافتسبرى تمامًا. كان دائمًا ما يدعو قائلاً: «رب أعطنى القدرة والسمو» لكى يجتث «القدوم البغيض للمذهب العقلى القذر من جذوره». وبعد قرابة ثلاثين عامًا لم يزل شافتسبرى فى غير حاجة لذلك العلم الحديث الذى كانوا يحاولون أن يضعوه فى مقابل بالرب.

وكان يكره على وجه الخصوص هؤلاء المدافعين عن الكتاب المقدس، والذين كانوا يحاولون التوفيق بينه وبين العلم. وفى مدخل إحدى المذكرات التى كتبت سنة ١٨٧١م نجد هذه الكلمات: «كلام الوحى الإلهى يخاطب القلب وليس العقل. إن الله يهتم قليلاً نوعًا ما بعقل الإنسان، وإنما يعنى كثيراً بقلبه، وإن مجرد ريالين من الإيمان والحب أهم كثيراً بالنسبة له من خزانة كاملة من الفكر والمعرفة. إن الشيطان يحكم فى عقل الإنسان والرب يحكم فى قلبه».

إن هذه السطور الرائعة تعبر عن لب الفلسفة الدينية المسيطرة فى النصف الأول من العهد الڤيكتورى. وهذا ما يفسر كيف أن الأمر كان ممكنًا بالنسبة للإيڤانجليكيين أن يبذلوا الطاقة الهائلة والعزيمة القوية فى وهم تحويل اليهود إلى المسيحية. ولو كان هناك مزيد من العقلانية وقليل من الروحانية لعرفوا أن نجاح هذا المشروع مشكوك فيه، ولكن كما قال شافتسبرى فيما بعد: إن قبول الشك معناه السماح بإدخال قدم الشيطان من الباب. ولذلك لم يكن لدى الإيڤانجليكيين الشك. بل بالعكس، فإن «تشارلز سايمون» الزعيم الإكليركى للحزب يعتبر عملية تنصير اليهود كما نقل عنه كاتب مذكراته: «ربما تكون أخلص اهتمامًا فى حياته».

وبين كل الجمعيات الإنجيلية التى توالدت مع نهاية ذلك القرن وبداية القرن التالى، تعتبر «جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود» أبرز هذه الجمعيات لسنوات عديدة. وكانت قائمة رعاة هذه الجمعية من النبلاء تلمع كالذهب لقد وضع الحجر الأساسى لمصلى الجمعية ومدرستها عام ١٨١٣م دوق «كنت»، أخو الملك ووالد الملكة «ڤيكتوريا». وكان يعتبرها «باسيل وود» المربى الإيڤانجليكى العظيم «مؤسسته المفضلة» بين أسراب الجمعيات التى تسعى وراء عضويته. لقد أصبحت مكانة هذه الجمعية تهدد مكانة «جمعية الكنيسة التبشيرية» التى صار وعّاظها يقولون بغضب: «هل هو إله اليهود فقط؟».

لقد أصبحت «جمعية اليهود»، حيث إن هذا هو الاسم الذى اشتُهرت به، هى المنبر الرئيسى الذى من خلاله صار اللورد «شافتسبرى» ورفاقه المتحمسون يتابعون حلمهم الجميل، وهو إنشاء أبرشية أنجليكانية فى القدس، وقيام إسرائيل أنجليكانية على أرض فلسطين.

ظهرت هذه الجمعية عام ١٨٠٨م وسط الارتفاع المفاجئ للحماس الإيفانجليكى الذى نتج عنه إنشاء جمعيات مثل «الجمعية البريطانية والأجنبية للكتاب المقدس»، و«جمعية الأرض الدينية» و«جمعية الكنيسة التبشيرية» وجمعيات أخرى كثيرة.

ولكن ظلت «جمعية اليهود» تسير قدمًا نحو هدفها المعلن بسلسلة من «الخطب القائمة على البرهان» مساء يومى الأربعاء والأحد، والتى تهدف لإثبات أن «يسوع» هو مسيح اليهود ومخلصهم. لقد تم استئجار كنيسة من الفرنسيين البروتستانت وتم إعادة تسميتها كـ«مصلى اليهود». وتم إنشاء مدرسة، على أمل أن تنجذب إليها العائلات اليهودية وترسل إليها أولادها نتيجة العرض المقدم للتعليم المجانى. وفى خلال ثلاث سنوات استطاعت المدرسة أن تفخر أنها بحوزتها أربعمائة تلميذ، ولن يلحظ غير الفضولى أن أقل من خمس هؤلاء التلاميذ من اليهود.

وبعد مرور خمس سنوات على إنشاء الجمعية؛ أصبحت تحتوى على قائمة تضم حوالى ألفين من المتبرعين، والذين تملأ أسماؤهم

خمسين صفحة من الحجم الصغير، وتتراوح تبرعاتهم بين بضعة شلنات إلى مائة جنيه. وقد حصلت على قطعة أرض خاصة بها وتم إعادة تسميتها «مكان فلسطين»، حيث تم تشييد مصلى صغير ومدارس والجامعة العبرية للمبشرين. وقد نشرت الجمعية جريدتها الشهرية «العقل اليهودى». وبحلول عام ١٨٢٢م كان قد ذاع صيت الجمعية حتى أصبحت اجتماعاتها تقام فى «مانسيون هاوس - Mansion House» يرأسها اللورد «مايور- Lord Mayor». وبمجىء عام ١٨٤١م انضم رؤساء أساقفة كل من «كانتربرى» و«يورك» وثلاثة وعشرون مطرانًا أو «تقريبًا كل منصة الأساقفة» إلى قائمة حضور الجمعية، كما انضم أيضًا إلى القائمة دوق ونبلاء الأرستقراطية البريطانية. وبحلول عام ١٨٥٠م كان قد أصبح للجمعية ثمانية وسبعون مبشرًا يعملون فى اثنين وثلاثين مكتبًا فرعيًا من لندن إلى القدس، بنفقات تبلغ ستة وعشرين ألف جنيه.

وفى التقارير السنوية للجمعية، التى أخذنا منها هذه الحقائق المفعمة بالفخر والسعادة، فإن البيان المتواضع الوحيد هو عدد اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، وأحيانًا كانت تحذف هذه الإحصائيات تمامًا من الخجل. فى عام ١٨٣٩م وبعد ثلاثين عامًا من العمل، فقد استطاعت الجمعية أن تحصل على عدد مائتين وسبعة بالغين يهود اعتنقوا المسيحية فى لندن، أو متوسط ستة أو سبعة أشخاص سنويًا. أما بالنسبة للعمليات التبشرية الخارجية، فقد أقرت الجمعية - على سبيل المثال - أن فى «بغداد» والتى بها

١٠٠٠٠ يهودى وثلاثة مبشرين، تم تنصير يهوديين، ومن «سميرنا» والتى بها ١٥٠٠ يهودى لم يتم تنصير أحد وتم إلغاء الإرسالية التبشيرية هناك، لقد حققت الجمعية نجاحًا بلا شك، ولكن ليس بالقدر المطلوب. على أى حال فإن ذلك لم يمثل مشكلة. فإن رعاة الجمعية الخيريين ظلوا ينشرون المسيحية بين اليهود بناءً على قول «بولس الرسول»: **بدون اليهود ستظل الكنيسة غير كاملة إلى الأبد.** ولكنهم كانوا لا يدركون أن ذلك المشروع لا يحظى إلا بقدر ضئيل من الاهتمام لدى اليهود. وإنه لمدهش حقًا ذلك التفاؤل الذى تمتع به العاملون بالجمعية تجاه المهمة التى فشل فى إنجازها أعظم المبشرين فشلاً ذريعًا. لقد كانوا دائمًا يرددون «رسالة بولس للعبرانيين» لتبرير عملهم ولكن لا يبدو أبدا أنهم تساءلوا: لماذا قد حرم أهل «بولس» (اليهود) عليه النجاح الذى حققه فيما بعد بين الجنتيل(*)؟ أو يسألون أنفسهم: لماذا يجب على اليهود بعد ١٨٠٠ عام أن يجدوا آراء الجمعية أكثر إقناعًا من آراء «بولس» التى أنكروها؟ ولكن إخلاصهم وهدفهم الجاد كانا فى غاية الوضوح. إن الكاهن «أليكسندر ماكاول- Alexander Maccaul» الرئيس التنفيذى للعمل التبشيرى بالجمعية وأستاذ العبرية بجامعة «الملك» بلندن، لم يكن فقط أعظم عالم فى العبرية فى عصره بانجلترا، ولكنه كان رجلاً عاش وعمل بين يهود روسيا وبولندا، وكان على علم بأصول الديانة اليهودية، وكانت هذه من مميزاته الرفيعة. أما

(*) الجنتيل: غير اليهود.

«لويس واى – Lewis Way» وهو محام ثرى كرّس ثروته لجمعية اليهود، وكان له الفضل فى «أول دفعة كبيرة فى سبيل القضية اليهودية»، فقد كان يتأجج بداخله نفس الإيمان بأن إفادة العالم أجمع ستتحقق بالنجاح المطلق لعمله. لقد أتى «واى» إلى الجمعية بطريقة تطابق نزعة الإيفانجليكيين المجيدة المعادية للعقلانية. وطبقًا للأسطورة التى تُروى كل اجتماع سنوى، رغم أنه تم التشكيك فيها، فإن «واى» كان معجبًا بقطعة أرض من البلوط رآها أثناء التريض بحصانه يومًا من «إكسماوث» إلى «إكستر»، وقد أخبره صديق له أن قطعة الأرض هذه تملكها سيدة تدعى «چين پارمينتر – Jane Parmenter»، وأنها قد أمرت فى وصيتها بألا تقطع أشجار البلوط هذه حتى يتم إعادة اليهود إلى فلسطين. وقد عاد السيد «واى» إلى بيته متأثرًا بهذا الاعتقاد الطريف ليعيد قراءة الكتاب المقدس حتى وصل إلى البشارة التى جعلته يترك القانون ويدرس اللاهوت ويلتزم بأوامرها ويتبرع بثلاثة عشر ألف جنيه ليخرج جمعية اليهود من ديونها. وبعد ذلك ظل «واى» الممول المالى الرئيسى للجمعية لمدة عشرين عامًا. وقد موّل عملية طبع الكتاب المقدس باليدشية [العبرية فى ألمانيا]، ونشر الطقوس الدينية لكنيسة انجلترا باللغة العبرية، وقد زار كلاً من قيصر روسيا وملك بروسيا ليكسب تأييدهما الرسمى، لإقناعهما أن «تنصّر اليهود على أيديهما يمثل الفائدة الكبرى للشعب اليهودى وللعالم أجمع». ومما أثار اشمئزاز رؤساء كليات «دويلن» الذين علقوا آمالاً كبيرة على ذلك

الدارس العبقرى الشاب «ماكاول»، أنه ترك الجامعة وذهب إلى «وارسو» كمبشر مسيحى لليهود. وأثناء رحلته للخارج كما تقول ابنته فى مذكراتها، فإنه قرأ «رسالة بولس للعبرانيين» ثلاث عشرة مرة، وقد عقد العزم على أن يكون بارعًا فى النص العبرى حتى إنه استطاع أن يكتب أسفار موسى الخمسة بخط اليد ثمانى مرات خلال ساعات الفراغ المتراكمة فى حياته. ولا عجب فى أن ابنته التى ولدت فى وارسو قد تعلمت العبرية فى سن الثالثة، وفى الرابعة استطاعت أن تقرأ الكتاب المقدس وتتحدث الألمانية وتجيد اليدشية، وفى سن الثانية عشرة قامت بتدريس العبرية فى المدرسة التبشيرية بمدرسة «مكان فلسطين».

وعندما عاد «ماكاول» إلى لندن سنة ١٨٣١م تم تعيينه رئيسًا لكلية جمعية المبشرين، ولعب دورًا بارزًا فى توضيح أحوال الشعب اليهودى للمواطنين الإنجليز، الذين - كما تقول ابنته - «يعرفون القليل عنها ويكترثون أقل». وفى ظل جهوده لإقناع المترددين اليهود بمهمته، فقد ألّف كتيبًا دعائيًا بعنوان: «السبل القديمة» يشرح فيه نظرية أن المسيحية هى النتاج المنطقى لعقيدة موسى، فى حين أن الكتابات الحبرية فى العصور الوسطى حادت عن الطريق الصحيح. وتتذكر ابنته السيدة «فين - Finn» تلك المناقشات التى كانت تقام فى مكتبة والدها ظهيرة كل سبت، عندما كان يحضر سادة من اليهود ليناقشوا الأمور الدينية، وكانت هى وأخوها الأصغر يستمعان لتلك المناقشات من فتحة الباب.

وهذه الشابة اتخذت لها بيتًا فى القدس فيما بعد لمدة ثمانية عشر عامًا، كزوجة للقنصل البريطانى هناك، وكانت تعمل مع زوجها على إعادة فتح الأرض المقدسة «لأصحابها الحقيقيين وهو الشعب العبرى»، وأن تكون حلقة الوصل الحية بين «شافتسبرى» و«بلفور». لقد قامت فى سن الخامسة عشرة بكتابة نسخة من خطاب شافتسبرى التاريخى لـ «بالمرستون»، والذى يطلب فيه أن تكون انجلترا الراعى لعملية عودة اليهود. لقد نسخت هذا الخطاب على «ورقة فولسكاب صفراء ذات حواشٍ ذهبية لامعة» وقدمتها كهدية لوالدها، وقد مات سنة ١٩٢١م فى سن السادسة والتسعين بعد أن عاش ليرى انجلترا قد وضعت فلسطين تحت الانتداب.

من المستحيل ألا يعجب المرء بمعرفة وإخلاص وحب هؤلاء الرجال أمثال ماكاول وشافتسبرى، فبعد أن أصبح الأخير رئيسًا لجمعية اليهود سنة ١٨٤٨م، ظل يحضر كل اجتماع سنوى لها لمدة سبعة وثلاثين عامًا حتى مات، وكان أيضًا يتلقى دروسًا فى العبرية من صديقه «الحاخام ماكاول». ولكن يظل لدى المرء الشعور بالتفاوت الهائل بين هذا السعى الجاد وتلك النتائج الضئيلة. فقد كان هذا البناء الهائل قائمًا على الرمال من حيث نشر المسيحية بين اليهود، وتم تكريسه لهدف لا يزيد واقعية عن السراب فى الصحراء.

وقد كان هناك نقاد للجمعية أعلنوا عن شكوكهم فى نجاحها من

البداية، وحتى فى تقرير الجمعية السنوى لعام ١٨١٠م اعترفت الجمعية أنها يتم السخرية منها بسبب «توقعاتها الخيالية اليوتوبية الحمقاء»، ولكونها مجالاً لذلك «الحماس». وفى الواقع فقد تم اعتبار العضوية فى هذه الجمعية دليلاً على الجنون تم استخدامه فى إحدى قضايا الجرائم سنة ١٨٦٣م. يقول المدعى: «هل تعلم يا سيدى اللورد أنها عضوة فى جمعية تنصير اليهود؟» ويجىء الرد: «وهل تعلم أننى رئيس هذه الجمعية؟» فلم يكن الرئيس أحداً غير شافتسبرى نفسه.

مثل هؤلاء النقاد كانوا يعتبرون أن مسألة تحويل اليهود إلى المسيحية لن تكون إلا بمعجزة، مثل ذلك التدخل الإلهى الذى أنقذهم من فرعون، وأن الجهود البشرية لاستعجال ذلك تعتبر عملاً وقحًا (ويُذكر أن اليهود الأرثوذكس كانوا يستخدمون نفس الاعتراض). وكان النقاد يرددون متذمرين أن مثل هذا الوقت والمال الكثير كان من الأفضل إنفاقهما فى خدمة الكنيسة المسيحية بدلاً من الجرى وراء اليهود. وكان أكثرهم غضبًا هو الكاهن «هنرى هاندلى نورس - Henry Handley Norris» والذى أصدر كتابا كاملاً سنة ١٨٢٥م يلعن فيه الجمعية وكل أعمالها فى ستمائة وتسعين صفحة من الطعن الغاضب. وهذا الرجل الذى كان يُعرف «بصانع الأساقفة» تصادف أن كان قسًا لدى والد شافتسبرى الذى كان الإيرل السادس، والذى كان على خلاف مع ابنه شافتسبرى وكان عجوزاً قاسيًا مستبدًا، وربما كان ذلك السبب فى حنين ابنه لاتباع الجانب المضاد لآرائه.

ورداً على هذه الانتقادات، فإن المدافعين عن الجمعية ظلوا باستمرار يشجعون على إصلاح الخطأ الذى تم ارتكابه طويلاً فى حق «شعب الله القديم». وكان يقنعون أنفسهم أن تحويل اليهود إلى المسيحية يمثل إلى حد ما تعويضاً لليهود عن الاضطهاد المسيحى لهم. ويناقش الكاهن «و.ت. جيدنى - W.T. Gidney» مؤرخ الجمعية بعد مائة عام، كل العلاقات التاريخية ليوسف الرامى، أو لواحد أو أكثر من الحواريين الذين وعظوا بالإنجيل فى انجلترا، ويصر على أنه ما دامت الرسالة الأصلية للخلاص جاءت عن طريق «يهودى مسيحى»، فإن على بريطانيا إعادة المسيحية إلى يهودى اليوم رداً للجميل، إذا لم يكن هناك سبب آخر.

لقد كان للجمعية فى الواقع مهمة مزدوجة، كان عليها إقناع اليهود بالكف عن «الأخطاء والسخافات الناتجة عن آرائهم الحالية الخاطئة»، وكان عليها أيضاً إقناع المسيحيين المتشككين أن اليهود برغم الاعتراف بأنهم أناس متكبرون، متصلبو الرأى ومظلمو القلب، وغارقون فى الانحطاط الأخلاقى والعناد والجهل بالإنجيل، إلا أنهم ليسوا فقط يستحقون الخلاص، بل إنهم أيضاً عنصر حيوى فى تحقيق أمل المسيحيين بالخلاص. وقد حققوا ذلك بنوع من الإقلاب مكن العقل التبشيرى أن يتجاوز المنطق. لقد قال «بولس»: بالنسبة للإنجيل فهم أعداء من أجلكم، ولكن فيما يتعلق بالانتخاب (الاختيار) فهم أحياء

من أجل الأب. والحقيقة القديمة والتى قد تم نسيانها وهى أن رسالة يسوع والموجهة إلى «أقربائه بالشحم واللحم» اليهود أصلاً، قد أصبحت النص الأساسى لدى الوعّاظ الإيفانجليكيين. وقد روع «تشارلز سايمون –Charles Simeon» مستمعيه فى خطبة ألقاها سنة ١٨١٨م يذكرهم فيها بأن «الذى يشفع لنا الآن فى هذه اللحظة، وهو عند اليد اليمنى للرب، يهودى». ومن أجله يجب أن يعتبروا اليهود «أكثر شعب فى العالم أهمية، وأعظم المحسنين فى الجنس البشرى». وبالمثل فإن «هور – Houre» قد هنأ أعضاء الجمعية فى الاحتفال اليوبيلى لسنة ١٨٥٨م بأنهم «هؤلاء الذين يحبون الشعب اليهودى، وفوق كل ذلك، هم مسيحيون يحبون الملك اليهودى».

إن ذلك فى الحقيقة لم يكن حبّا للشعب اليهودى ولكن قلقًا على الروح المسيحية، وكان ذلك هو الحافز الذى دفع كل هؤلاء الرجال الجادين الأخيار. لقد كانوا مهتمين فقط بإعطاء اليهود الهدية المسيحية التى لم يردْها اليهود، والتحرير المدنى الذى لم يردْه اليهود والذى كانوا يعارضونه باستمرار. وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، تمت مناقشة مشروع «قانون التحرير» عدة مرات قبل تشريعه الفعلى سنة ١٨٥٨م، وهذا القانون يسمح لليهود بدخول البرلمان بدون النطق بالقسم المعتاد فى البرلمان، وهو «الإيمان الحق لدى المسيحى». وفى كل مرة تم فيها مناقشة مشروع القانون نجد اللورد «شافتسبرى» يعارضه بشدة على أساس أن التنازل عن ذلك القسم الرسمى يعتبر

خرقًا للمبادئ الدينية. ولم يكن الإيڤانجليكيون بذلك الحب لـ «شعب الله القديم» هم الذين أفسحوا المجال لليهود بأن يحصلوا على حقوق كاملة كمواطنين إنجليز، ولكن «الليبراليين - Liberals» الأقل ورعًا هم الذين حققوا ذلك. لقد كان اللورد «ماكاول» الذى يتحدث من الناحية التاريخية، وليس اللورد شافتسبرى من الناحية النبوئية، هو الذى ألقى ذلك الخطاب البليغ من أجل «التحرير»، والذى يذكر فيه أنه فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا «همجية مثل غينيا الجديدة.. كان لدى اليهود مدنهم البارزة وقصور من خشب الأرز ومعبدهم الرائع ومدارسهم التعليمية»، ولو أنهم قد أصبحوا فى ظروف أقل شأنًا الآن «أفلا يجب علينا الآن بدلاً من ذلك أن نعتبر المسألة عابرة ونندم على أنفسنا؟» يجب أن نعرف أن «شافتسبرى» قد قبلَ قانون «التحرير» حينما وجد تأييد المجلسين له، وطالب مسرعًا برفع السير «موسى مونتيفيور - Moses Montefiore» إلى مرتبة النبلاء. وقد كتب إلى «جلادستون» قائلاً: «إنه سيكون يومًا عظيمًا لمجلس الأعيان (اللوردات) حينما تندرج أسماء اليهود القدامى فى قوائم مشرعى المواريث فى انجلترا». ولم تلق وجهة النظر هذه ترحيبًا لدى اللوردات، ولكن شافتسبرى كان غير تقليدى كالعادة.

قد يمكننا تجاهل «جمعية اليهود» لو أنها ركزت كل اهتمامها فى تنصير اليهود. ولكن ذلك الرابط الحيوى، وهو استعادة إسرائيل، هو الذى أعطى لعمل الجمعية هذه الأهمية التاريخية. لقد بدأت الأمور

تتحـرك بعد سنة من تولى الملكة «ڤيكتـوريا» لعرش انجلترا، فى سنة ١٨٣٨م. وكان ذلك العام كما نذكر هو الذى وقعت فيه سوريا (ومعها فلسطين) فى فـوضى تحـدى مـحمـد على للسلـطان، والذى نتج عنه التدخل الأوروبى، لقـد كانت بريطانيا فى ذلك العام أول قـوة أوروبية تؤسس قنصليـة لها فى القدس، والذى تم تعـيينه كان نائبًـا للقنصل، ولكنها كانت بداية. وقد تصادف أنه فى مارس سنة ١٨٣٨م بدأ العداء التركى المصرى يحتـدم تجاه أزمة أخرى، حينما شجـعت الثورة العربية المحلية ضد إبراهيم باشا ولى العهد وابن محمد على، السلطان على أن يتسلح من أجل محاولة أخيرة يسحق بها محمد على المغرور. وقد قام «پالمرستـون» من أجل السلطان بإبرام معاهـدة تجارية مع الوالى، والتى تتضمن تزويد القنصلية البريطانية بالقدس بالمؤن. يمكن للمرء أن يجزم أن «آشلى - Ashely» كان الأساس فى كل شىء يتعلق بالقدس، وهو فى الحقيقة الذى رأى هذه الفكرة كخطوة أولى لاستعادة إسرائيل. لقد كان «پالمرستـون» هو الذى أرسل إلى القنصل يوجهه «أنه سيكون جزءًا من واجبك كنائب قنصل بريـطانى فى القـدس أن توفـر الحـمـاية لليـهـود بصـفـة عـامـة، وسـوف يكـون عليـك فى أقـرب فـرصــة الإبلاغ.. عن الوضع الحـالى للسكـان اليـهود فـى فلسطين». ولكن هذه لم تكن فكرة «پالمرستون» نفسه. إن وزير الخارجيـة كما كان آشلى يقول عنه آسفًا لم يكن يميـز النبى موسى من السـير «سـيدنى سمـيث!»، ولكنه يمكـن قبوله على أساس عملى وهو المصلحـة البريطانية. وفى هذه الحالة أكد

«آشلى» الفائدة من وجود العنصر البريطانى فى الساحة فى ذلك الوقت الحرج، ووضع أشلى فى رأس پالمرستون فكرة استخدام اليهود كوتد بريطانى فى الولاية العثمانية. لقد احتفظ آشلى بدافعه السامى وراء ذلك، ودون سراً فى مذكراته أن «الرب قد وضع فى قلبى رؤية هذه الخطة من أجله، وأعطانى القدرة على التأثير على پالمرستون». ومن الغريب أن تأثير آشلى على پالمرستون الذى ينتمى للحزب المعارض له كان دائمًا أكبر من تأثيره على الوزراء المحافظين لدى حزبه. وليس الأمر غريبًا لأن آشلى كان زوج ابنة زوجة پالمرستون، إلا أنه غريب لأن كلا الرجلين المتناقضين كان مغرمًا ببعضهما البعض، رغم أن أحدهما كانت عيناه على الدنيا والآخر كانت عيناه على الآخرة. لقد كان پالمرستون يقدر نصيحة الشاب آشلى فى الأمور الدينية وكان كرئيس وزراء لا يعين من جانبه مطرانًا كما يقولون إلا بتوصية «آشلى». وكان «آشلى» من جانبه يعرف أن زعيمه الجرىء المفعم بالحيوية يمكن الاعتماد عليه فى هدفه الجرىء أو الأصلى، والذى سوف ينظر إليه رجال «پيل – Peel» اللامبالون أو رجال «أبيردين– Aberdeen» الحذرون، بحذر وتردد. إن حماس آشلى لتعيين القنصل قد دوّن كاملاً بالحروف الڤيكتورية المائلة، وكان مليئًا بعلامات التعجب. لقد استأذن هذا الصباح ليترك «يونج – Young» الذى تم تعيينه للتو كنائب قنصل جلالتها فى القدس. ياله من حدث عظيم! إن المدينة القديمة لشعب الله على وشك أن تستعيد مكانًا لها بين الشعوب،

وانجلترا هى الأولى فى ممالك «الأغيار - Gentile» التى تتوقف عن أن تطأها.

قد يبدو أن المعانى التى استشفها آشلى من وراء تعيين نائب للقنصل فى القدس مبالغ فيها، ولكن آشلى لم يره مجرد ممثل لوزارة الخارجية ولكنه كان يراه مشعًا بأمل البشارة، و«معتمدًا» إذا جاز لنا القول، لمملكة داود والقبائل الاثنتى عشرة. فى الحقيقة لقد رتب آشلى ذلك الأمر بحيث يغطى نطاق سلطة القنصل البلد كلها فى إطار الحدود القديمة للأرض المقدسة، وأن القنصل الذى يتم اختياره يجب أن يكون شخصًا متعاطفًا مع القضية، لقد تولى يونج مهمته كقنصل بحماس. فى الحقيقة، لقد اتبع إرشاداته بحماس شديد جدًا لدرجة أن رئيسه، القنصل العام بالإسكندرية، كان يشكو لوزارة الخارجية أن السيد «يونج» «يمنح الحماية البريطانية بدون شرط أو تمييز لكل اليهود»، ولكن وزارة الخارجية أيدت يونج بوعد «بكل الدعم المطلوب» .

وفى ذلك الوقت كان آشلى يقرأ كتاب اللورد «ليندساى - Lindsay» الذى نُشر لتوه وهو «رسائل من مصر وسدوم والأرض المقدسة»، وكان ذلك أول كتاب فى سيل كتب الرحلات إلى الأرض المقدسة، والتى أشبعت الشعب البريطانى بقرابة أربعين كتابًا سنويًا على مر الأربعين سنة التالية. لقد استغل آشلى الفرصة لكى يعلن على الملأ رؤيته لاستعادة

«الأمة اليهودية» تحت رعـاية الكنيسة الأنجليكانية. إن التغـير السياسى الذى طرأ على فلسطين كـمنطقة نفـوذ بريطانية لم يكن قـد تبلور فى ذهنه بعد، ولكن البوادر الأولى لفكرة أن تصبح انتدابًا بريطانيًا ظهرت فى مقالة له عن كتـاب «ليندساى»، والتى كتبها لصحـيفة «كوارترلى ريفيو - Quarterly Review» عدد ديسمبر ١٨٣٨م.

وسنأخذ كدليل، الخطاب الذى أُرسل له من شـخص يهودى تحول إلى النصرانية وصل مؤخراً من «وارسو»، تحدث فيه عن تأجج المشاعر بين يهود روسيا وپولندا، وأن وقت العودة من أسرهم قد اقترب جداً، وعن زيادة الاهتمام المسيحى بالأرض المقدسـة، عما أسماه بالاهتمام الجديد والرقيق بالعبـرانيين من ناحية المسيحيين، وأيضًـا تقرب اليهود من المسيحية.

وقد تحدث عن خطة الجـمعية لبناء كنيسـة أنجليكية فى القدس «إن أمكن على قمـة جبل صهيون نفـسه»، والتى يتم تحصيـل الأموال لها الآن. وكان المبشرون التابعون للجمعية يؤدون الصلوات بالعبرية، حيث لم تقدم أى خدمة پروتستانتية من قـبل، «وكانت طائفة صغيرة متدينة من اليهود المتنصرين حديثًا تستمع يوميًا للحقائق الأنجليكية من كنيستنا على جبل المدينة المقدسـة بلغة الأنبياء وروح الرسل»، وبالتأكـيد عبّر آشلى عن هذا الحـديث بأنه أهم حدث تم فى الحـاضر، وربما فى أى وقت منذ بدء الفساد فى كنيسة المسيح و«سـيؤسس تنصير اليهود تحت

الرعاية البروتستانتية» المبادئ الصافية للإصلاح الدينى الذى تضمنه وترعاه كنيسة انجلترا للأبد.

وقد ترك الأمر الدينى جانبًا، ثم بدأ يجذب الانتباه لأهمية تعيين القنصل الجديد، عارضًا مقترحًا أن تربة وجو فلسطين يناسبان المحاصيل الضرورية لبريطانيا العظمى، من قطن وحرير وصبغات وزيت الزيتون، «ورأس المال والمهارات مطلوبان أيضًا»، ويرى أن يأتى ذلك من بريطانيا حيث إن فلسطين الآن تتمتع بوجود القنصل البريطانى، وتأمين الممتلكات الذى يوفره وجوده بالمنطقة. لماذا إذن لا يرى العالم عودة اليهود «الذين لن يقوموا بالزراعة فى أى أرض أخرى والذين وجدوا فى القنصل الإنجليزى وسيطًا بين شعبهم وبين الباشا، والذين سيصبحون مرة أخرى رعاة أراضى يهوذا والجليل».

قد تندهش من ثقة آشلى فى قدرة نائب قنصل وحيد على تحريك إمبراطوريات، بوجوده فقط، ولكن الثقة بالنفس الناتجة عن العصر الڤيكتورى، مثل التى كانت موجودة بالعصر الإليزابيثى، هى التى أنشأت الإمبراطورية البريطانية، وكان القنصل يمثل بريطانيا. فما المطلوب أكثر من ذلك؟

أمر وحيد، كان اليهود أنفسهم، أو المكون الأساسى الضرورى، لم يتواجد؛ لأنه حتى ذلك الوقت لم تحدث حركة عودة كبيرة، ليس قبل

جيل لاحق عندما قامت السياسة المعادية للسامية بالضغط الكافى لتدفع اليهود للنشاط الصهيونى، وهى سياسة القياصرة التى كانت سببًا لاستياء العامة. ولكن المعارك والمؤامرات والطموحات المتضاربة حول فلسطين، كانت سببًا لجعل شخص يهودى يأخذ على عاتقه مسئولية إعادة فتح الأرض لجنسه، وكان هذا رفيق آشلى السيد المحسن «موسى مونتيفيور- Moses Montefiore» والذى كان بسبب مشاعره الدينية وتحمسه الشديد مثل آشلى، وإن كان أقل، يؤمن باستعادة الأرض اليهودية كلها، وإن كان من الضرورى أن نشير لأسباب كثيرة أن «مونتيفيور» كان يهوديًا مؤمنًا لكن بطريقة أرثوذكسية، حيث كان يحضر يوميًا الصلاة اليهودية فى السابعة صباحًا، وكان يستعمل التقويم اليهودى ورفض حضور تقليده كمأمور؛ لأنه كان فى يوم «روش هاشانا – Rosh Hshanan» (أى : رأس السنة) لكن دخوله فى مجال التجارة عوّده على العمل لما يريد وألا ينتظر حدوثه، فلسطين يجب أن تكون لليهود، والقدس مقدرة أن تصبح عرشًا للإمبراطورية اليهودية وكونه رجلاً عمليًا جعله يقول أيضًا: «ابدأوا فى هذه اللحظة فى بناء المنازل فى القدس، ابدأوا فى الحال».

اعتبر مونتيفيور – مثل ذلك القنصل المتعلم – أن فكرة تنصير اليهود، والتى كانت الفكرة المحركة لدى آشلى، جنونًا، لكنهما بخلاف ذلك لم يكونا مختلفين كثيراً. كلمة «القدس» المحفورة على خاتم آشلى ظهرت على مقعد عربة مونتيفيور بحروف عبرية ذهبية.

كـان الاثنان يؤمنان بأنه بمجـرد أن يشعـر اليهـود بتـربة فلسطين تحت أقدامـهم سيصبـحون مزارعين مرة أخـرى، وسيزرعون أشـجار التين ونبـات الكرمـة، وسيـتشلون وطـنهم الأم من الضـياع، لقـد كـانا صهيـونيين قبل بدء الصهيـونية. أن تكون صهيونيّـا عام ١٨٣٠م كان شيئًا مثل أن تكون معاديًا للفـاشية فى عام ١٩٣٠م. آشلى كان محقًا للسبب الخطأ ومونتيفيور كان محقًا لكن قبل الأوان.

فى نوفـمبر ١٨٣٨م ذهب مونتيفـيور إلى فلسطين، وبفضل نفوذه وثروته وذكرى كرمـه فى الزيارة السابقة، كانت رحلتـه فى البلاد مثل تقليد ملكى، وكانت وجهته إلى القدس وهو يمتطى جوادًا عربيًا أعطاه له الوالى التركى، الذى أخـذه أسفل جبل الزيتون وهو مـحاط باثنين من الجنود الأتراك فى زى الاحـتفـالات ، وقـام بين العروض والجـو الشرقى - كـعادة رجال الأعـمال - بفحـص المنازل والحالة الصحـية العـامة وفرص الـعمل واسـتصلاح الأرض المـتاحة لـقوم «شالـوكاه» البائسين، والذين عـاشوا على الصلاة والعبادة وقـراءة التلمود، وعلى قروش صندوق تبرعات القدس بالخارج (لفترة طويلة).

وواصل رحلته يشـاهد الناس بمصر مع «محـمد على» الذى طلب من «مونتيفـيور» مرة أن يكون وكيل أعماله، فقـام بوضع خطة للباشا لبيع الأرض وذكرها بالتفصيل فى مذكراته فى مايو ١٨٣٩م:

سأعطى «محمد على» ضمانًا «لمدة خمسين سنة، فى ١٠٠ أو ٢٠٠

قرية، سأعـطيه إيجاراً متزايـداً بنسبة ١٠ إلى ٢٠٪، وسأدفع مـجموع المال كله سنوياً في الإسكندرية، وستكون الأراضي والبلاد خلال هذه الفـترة مـعـفـاة من الضرائب سـواء من البـاشـا أو الوالي للولايات المختلفة، بالملكية التي سآخذها. سأقوم بإرضاء السماء بعودتي لانجلترا وتأسيس شـركة لزراعة الأراضي وتشـجيع إخواننا اليـهود في أوروبا على العـودة إلى فلسطين، أرجو أن أحـقق عودة الآلاف من إخـواننا لأرض إسرائيل، وأنـا متأكـد أنهم سيكونون سـعداء بممارسـة ديانتنا بطريقة مستحيلة في أوروبا.

ووعده محـمد علي، وهو يدخن نرجيلته المرصـعة بالجواهر، بأي قطعة من الأرض معروضـة للبيع في سوريا ووافق على فعل أي شيء يستطيع فـعله، ليسـانده في مشروعـه، لكن قبل أن تمر سنة ضـعفت سلطة محمد علي أيضاً، وعادت سوريا إلى السلطان، ولم تحن فرصة عودتهم مرة أخـرى قبل أن تحبط سلالتهم البـائسة، وفي نفس الوقت اندلعت حادثة دمـشق، والتي شهـدت العديد من حوادث القـتل ضد اليهـود بسبب مقـتل الراهب «كابوتشـيان- Capuchian»، وتلت كل الأحـداث الغاضـبة للمـذبحة أحـداث الشـغب بما في ذلك السرقـة والسجن والتعذيب لانتـزاع الاعترافات التي دفع إليها ونظمـها عملاء فرنسـيون تحت النظام الكاثوليكي المحلي، كان هذا جـزءاً من الغليان تجاه المسـألة الشرقية، والتي بلغت ذروتهـا في عام ١٨٣٩ - ١٨٤٠م في مواجهـة فرنسا. وبالرغم من أن حادثة دمشق كانت مـهمة لتطور

القومية اليهودية فى القرن التاسع عشر وتوحيد يهود العالم، فمن المهم هنا أن نذكر أنهـا أعطت الدافع للتدخل البـريطانى لصالح اليـهود فى الإمبراطورية العثمانية وأيقظت الرأى العام لحالهم.

وقامت مذكرة وجهت إلى الملوك البروتستانت بأوروبا لعودة اليهود تم نشـرها بالكامل فى جريدة «التـايمز - Times» فى ٩ مـارس عام ١٨٤٠م بجذب الانتـباه للمسـألة الشرقيـة، والعوامل المهمـة الأخرى وقتـها، معطية الوقت الملائم «لما هـو الواجب الجيد» على المسيـحيين البروتستانت تجاه اليهود. بعد ذلك بوقت قصـير نشرت الجمعية العامة لكنيسـة اسكتلندا تقريراً عن طريق اثنين من مـبشريها عن حـالة يهود فلسطين، جـذبت الكثيـر من الانتباه، وتـبعتـها بمذكـرة موجـهة إلى «بالمرستـون»، التى نشرتهـا جريدة التايمـز (عدد ٣ ديسمـبر ١٨٤٠م) أوصته بتـعيين قنصل للقدس ومد الحمـاية البريطانية لليهـود، وعبّرت عن آملها فى أن الأزمـة السورية الحالية «سينتج عنـها زيادة، وترسيخ فى النفوذ البريطانى فى هذه الأرض المهمة».

وفى نفس الوقت ما كـاد مونتـيفيـور يعود إلى انجلترا، حـتى عاد مسرعًا إلى الشرق مرة أخرى ونجح فى إطلاق سراح المسجونين اليهود بالسجـون السورية، ليس عن طريق الـعفو الذى كـان يبغـضه ولكن بالبـراءة من تهمـة القتل، وأيضًـا تعـويض، وأمر عـام من السلطات بحماية ممتلكات وأرواح اليـهود،وكان مونتيفيـور رجلاً لا يمكن إيقافه

سواء عن طريق المؤمرات الفرنسية أو إجراءات محمد على، أو الحرب، لقد أذهل العالم ليس فقط بحصوله على البراءة الكاملة، ولكن على وثيقة أيضًا تضمن من السلطات المعاملة المساوية لليهود بالمواطنين العثمانيين، «وثيقة الحقوق» لليهود فى المناطق العثمانية، حصل عليها مونتيفيور بكل فخر وأمل، وقام بالمرور على باريس فى طريقه للوطن حتى يعطى بنفسه إلى «لويس فيليپ» نسخة من الوثيقة التى حصل عليها لإحباط طموح الملوك فى الشرق. واللحظة التى حصل فيها على قمة الرضا النفسى، عندما كرمته الملكة ڤيكتوريا عند عودته على «جهوده التى لا تتوقف لصالح الإخوان المضطهدين فى الشرق، وبصفة عامة لصالح الأمة اليهودية».

وربما كان اهتمام الملكة له صفة شخصية(*)، «لكن تعليمات بالمرستون بخصوص اليهود لم تكن هكذا. وبينما كان «مونتيفيور» فى الشرق كان بالمرستون يرسل العديد من الرسائل إلى «پونسونبى» ومبعوثين آخرين، سلسلة رسائل توضح البداية الرسمية للتدخل البريطانى لصالح الشعب اليهودى واستقرارهم فى فلسطين، لقد عقد بالفعل فى يوليه «معاهدة لندن»، حيث قام باستعطاف القوى الأربع

(*) عندما كانت الملكة أميرة، قامت هى ووالدتها بتناول الغذاء فى منزل «مونتيفيور» الريفى فى «كنت»، حيث كان جارها فى عام ارتقائها للحكم، حيث قامت بتنصيبه فارسًا، وهو أول يهودى متنصر يحصل على هذا اللقب، وقبل رحيله لدمشق قابلته الملكة شخصيًا لتشجيعه فى أداء مهمته.

لمساعـدة السلطان ضد محمـد علي، والتي تسببت في غضب فـرنسا والتعجيل بالمرحلة الأخيرة من المسألة الشرقية.

بينما كان بالمرستون يقهقه بسبب ضربتـه الشجاعة، وكان مونتيفيور يتقدم للإمام مثل فارس من العصور الوسطى لينقذ إخوانه المجروحين، كان آشلي الذي مـا زال مسـتغرقًـا في رؤيته النبوئيـة، يسـتخدم هذه الحادثة أيضًا.

كـتب مذكـراته في ٢٤ يوليـه عن تحمـسه لآمـال وطمـوحات الشـعب اليهـودي «كل شيء يبدو مناسبًا لعودتهم لفلسطين، هل مـن الممكن لقوى الغـرب الخمس أن تتـدخل لتضـمن أمن أرواح وممتلكات اليـهود؟ سـوف يعـودون بسرعـة بأعـداد كـبيـرة، ثم بمبـاركة الرب سـأقـوم بإعـداد وثيقـة وسأؤيدها بكل الأدلة التي يمكنـني الحصول عليهـا، وبثقتي بحكمة ورحـمة الرب، سأقدمها لوزير الدولة للشئون الخارجية.

في الأول من أغـسطس تناولت الغـداء مع بالمرسـتون وقـدمت له خطتي التي بهـرته تمامًا، وقـام بطرح بعض الأسئلة ووعـد بالتفكـير بالأمر».

اعترف آشلي أنه استخدم براهين سياسية واقتصادية وتجارية؛ حيث إن هذه الاعتبـارات التي سيأخذ بهـا وزير الخارجية في اعـتبار الوطن الذي «لا يبكي مـثل سيـده من أجـل القـدس»، وهو لا يدري أنه «تم اختـياره بواسطة الرب كأداة لصـالح شعـبه القديم، وللحـصول على حقوقهم بدون إيمانه بقدرهم».

يأتى «بالمرستون» ببراعة ويكتب رسالة إلى «پونسونبى» السفير لدى الحكومة العثمـانية والتى تم ذكرها آنفًا فى هذا الفصل، يتحـدث فيها عن مزايا تـوطين اليهود فى فـلسطين للسلطان ولبريطانيـا. وفى نفس اليوم وصل الأسطول البريطانى لساحل سـوريا، وظهر مقال آشلى فى جريدة «تايمز» فى السـابع عشر، وتبعتـه العديد من الردود التى آثارها المقال، واقتـرح أحد الذين قاموا بالرد - وهو شخص مـجهول - أن على بريطانيـا أن تشترى فلسـطين لليهود، واقـترح آخـر أن عودتهم مسألة سيـاسية عملية بالنظرية المتـفائلة التى تقول: **إن استحـواذ اليهود على سوريا مـرة أخرى سـيكون بمثابة إزالة عقـبة من بين القـوى، وبالتالى ستساعد على نشر السلام العام.**

قدم آشلى رسميًا إلى «بالمرستون» فى ٢٥ سبتمبر وثيقته عن «عودة اليهـود إلى أرضهم القديمة». لقـد كان إيقاع الوثيـقة مملاً؛ لأن آشلى كان يحـاول أن يضع سببًـا للسياسـة الرسميـة، جرد قلمه من بهـجة الحديث عن «شـعب الله القديم» وعودة مملكة المسـيح، ولم يستطع - حيث إنه كـان معاديًا للإمـپريالية - أن يتحـمس فى الوثيقة لأسـباب تدعو لرفع العلم البريطانى على تلك البلاد. قدم ببساطة خطة «لضبط المسألة السورية» ومروجًا لخصوبة الأراضى بين الفرات والبحر الأبيض المتوسط، ويؤكـد أن اليهود يعـتقلون أن الـوقت قد اقتـرب لعودتهم لأرض فلسطين، وأن خوفهم فقط على أرواحهم وممتلكاتهم يقف دون ذلك، ويقترح أن السلطة الحـاكمة للمقاطعـات السورية (التى لم تكن محـددة فى الوقت الذى كتـب فيه هذا) علـيها أن تدخل فـى ارتباط

مقدس لتؤسس مبـادئ وممارسات الحضارة الأوروبية، وأن هذه السلطة يجب أن تحث على سن «قوانين منصفـة وحماية منصفة لليـهود وغير اليهود»، وأن على القوى الأربع أن تضمن تطبيقها، وأنه يجب أن يتم إلحاق بند خاص بإقـرار ضمانهم بالمعاهدة النهـائية للمسألة الشـرقية. ويسرى هذا الضمان على «أموال وصناعات اليـهود الخفية»؛ حيث إن الأراضى الآن لا قيمـة لها كمصدر للدخل، فسـيتم تطويرها ودفع ما عليهـا من ديون، ويتوقع المزيد من الجهد من اليـهود أكثر من غـيرهم بسـبب «ذكريـاتهم القديمة وحـبـهم الشـديد لأرضهم»، صناعتـهم ومثـابرتهم ضخمة، يسـتطيعون العيـش بأقل المصاريف الممكنة، وهم معتادون على المعاناة ومتدربون على الطاعة التامة للحكم الاستبدادى، وسيخضعون للحكومة المشكّلة حاليًا».

ومثـله مثل الذين قـاموا بـ «وعـد بلفور»، لم يذكـر آشلى أى شيء عن إمكانية إقـامة دولة يهـودية، كان الحـذف فى وعد بلفور عـمديًا، وكـما تم إثبـاته، فإن هذا كـان الخطأ القاتل الـذى سبب كل المتـاعب، لكن أن يكون آشلى قد فكر بإقامة دولة ذاتية الحكم أمرًا مشكوكًا فيه. بالعكس، لقد أكد لـ «بالمرستـون» أن اليهود سيـعترفـون بالملاك الحاليين للأراضى (الملاك الأصليين العرب)، وسيرقبون أن يبدوا اهتمامهم بها عن طريق الإيجار أو البيع، وأضاف: «سيعودون على نفقاتهم الخاصة وبدون أى مخاطر غير على أنفـسهم، وهذه ستكون، أرخص وأفضل وسيلة» لاسـتعمار سوريا، لن يطالبـوا الضامنين «بأى نفـقات ماليـة»، وأن الفوائد التى ستنتج عن تلك العودة، ستعم العالم المتحضر».

ولم يكن هذا آشلى فى أفضل حالاته، ففى محاولته أن يكون خبيرًا بالحياة نجح فقط فى أن يبدو جشعًا، فكان تقديره لليهود مضحكًا، على الأقل نحن نعرف أنه سيكون هكذا فى التاريخ المقبل، لكن يجب أن تتذكر أن آشلى كان يكتب هذا فى الوقت الذى كان اليهود أنفسهم لم يفكروا بعد فى فكرة الدولة (لم يكن هذا إلا بعد ٥٥ سنة) قبل أن تبرز «دولة هيرتزل اليهودية- Herzl's Judenstaat» بين شعبه، ولقد شهقوا من صدقها.

كان آشلى يكتب قبل أن يولد «هيرتزل» بعشرين سنة، وقبل أن تشكل أول منظمة يهودية لإرسال المستعمرين لفلسطين بأربعين سنة. وأيضًا الفكرة الغربية الخاصة بخضوع اليهود لم تكن نتاج وقته فقط لكن أيضًا نتاج فكره، الذى اعتُبر بطريقة ما عاملاً سلبيًا للألفية المسيحية. ولو كان آشلى يفكر بطريقة سياسية أكثر لتذكر المكابيين، وكيف اتخذهم أبوت ألفريك مثلاً لإلهام الشعب الإنجليزى فى القومية.

فى هذه الأثناء كانت الأحداث تصل لذروتها وبسرعة فى سوريا.

فى الثالث من أكتوبر، تم قصف بيروت بالقنابل من قبل أسطول «نابير» واستسلمت، وبعد ذلك بشهر سقطت عكا وألهم آشلى ليرى إعجاز الرب فى البحار الإنجليزى، كما رأى من قبل الرب وهو يهدى ويساعد وزير الخارجية، «إنه شيء يفرح القلب بالفعل أن نقرأ عن

نجاحنا فى سوريا، والبسالة المنقطعة النظير والإخلاص التام لرجال الوطن. فأبسط ضابط بحرى واحد يفعل أكثر من مائة ضابط تركى .. يا له من سبب للعظمة!.. ويالها من أداة لإرضاء الرب لاتحادنا وحمايتنا لشعبه القديم ولهدفه الأخير على الأرض!».. ففى مذكراته يعود آشلى لنفسه.

وفى الشهور التى تليها التى طارد خلالها «نابير» أسطول محمد على حتى عاد لمصر وأجبره على إعادة الأسطول للسلطان، بلغ التأثير البريطانى على الحكم التركى ذروته. صار بالمرستون الآن ينفذ خطة آشلى لكن بأسلوبه، فذكّر پونسونبى فى نوڤمبر بدور بريطانيا كحامية لليهود تحت الحكم التركى، وفى فبراير ١٨٤١م أذن للسفير أن يسمح لليهود «أن يرسلوا للحكومة التركية عن طريق السلطات البريطانية، عن أى شكاوى لديهم ضد السلطات التركية».

وفى نفس الرسالة قام مرة أخرى بمناقشة مشروع آشلى، وتقريبًا باستخدام كلمات آشلى، حيث كتب وزير الخارجية «إنه سيكون فى مصلحة السلطان أن يحث اليهود المنتشرين فى الدول الأخرى بأوروبا وأفريقيا على الذهاب والاستقرار فى فلسطين؛ لأن الثروات والعادات المنظمة والصناعات التى سيجلبونها معهم ستساعد كثيرًا على زيادة مصادر الإمبراطورية التركية ولكى تقوم بنشر الحضارة هناك».

ويجب الضغط على السلطان لكى يعطى «أمن حقيقى وملموس».

وفى أبريل تبع هذا بخطاب غير مباشر لكل القناصلة البريطانيين المقيمين فى الإمبراطورية التركية، يخبرهم فيه أن الحكومة التركية تضمن معاملة منصفة للمواطنين اليهود، ووافقت أن تحاسب عن أى معاملة قاسية تعرف بها عن طريق المسئولين البريطانيين. وقام بإخطار كل ممثلى الدول أن يقيموا «تحقيق دقيق» لأى حالة من هذه الحالات التى قد يعرفون بها، ويقدموا «تقريراً» كاملاً للسفير فى استانبول، ويوضحوا للسلطات التركية المحلية أن «الحكومة البريطانية تريد مصلحة اليهود العامة»(*).

وكان الذى نتج عن خيال آشلى والحقائق الإيفانجليكية قد تحول إلى سياسة رسمية، لكن آشلى قام بدعك مصباحه مبكراً بالنسبة للتاريخ وكان حلمه قصير العمر، عاش لفترة قصيرة على الأرض ثم عاد إلى الزجاجة مرة أخرى، ولم يتم إلحاق الضمان الذى كان يريده فى المعاهدة النهائية للقوى الخمس، لصعوبة إخراج اتفاقية بين خمس قوى ذات مصالح مختلفة، المعاهدة التى ستعرف باسم «اتفاقية المضايق» والتى كانت قاصرة فقط على التحكم فى خليج «البوسفور»

(*) نذكر القارئ أنه فى آخر القرن الخامس عشر، لجأ اليهود الفارون من إسبانيا لتركيا، مقر الخلافة الإسلامية لما عرف عنها من عدل وتسامح مع المسيحيين واليهود، أما الادعاء بغير ذلك، فهو كثيراً ما يكون مماثلاً للادعاء بأن مصر تضطهد المسيحيين. وما أشبه سياسة بريطانيا فى ذلك بسياسة الولايات المتحدة اليوم عندما تتدخل فى شئون الدول الأخرى تحت أعذار مختلفة، متعددة ومتجددة.

و«الدردنيل»، ولم يتعـد التشجـيع على عودة اليهـود لفلسطين رسالة بالمرستون الأخـيرة فى هذا الموضوع فى فبـراير، ولم يلق «پونسونبى» بالاً للفكرة ولم يبـذل أى مجهـود لينفذها، والسلطان أيـضًا لم يكن يحب الفكرة، والكارثة الكبرى حدثت عندمـا قاوم «پالمرستون» الأنيق هدير تهديد الحرب الفـرنسية، وأتم معاهدة القـوى الخمس فى يوليه، وتم نزعه من منصبه عند هزيمة حكومـته لموضوع محلى فى أغسطس، وتغيرت السـياسة عند مكتب وزارة الخـارجية بواسطة الحماقـة القديمة للورد أبيردين - كما قال پالمرستون. قابل أبيردين اهتمـام سلفه باليهود بنفـور ولا مبالاة، مـثلما فـعل «آسكويث - Asquith» بعـد ذلك بخمـسة وسـبعين عـامًا عـندما ارتعـد للخطة الرائعـة لفلسطين التى قـدمت لمجلس الوزراء بواسطة «لويد چورچ»، فقام بإخطار يونج القنصل بالقدس أن يحد من الحماية القنصلية إلى «الرعايا والوكلاء البريطانيين فقط».

وصل «پالمرستـون» بالطبع إلى ممارسة تقليـدية عندما أذن بالحـماية لليهود غير البريطانيين الجنسية، ولكن فعلها عمدًا، عندما شجع اليهود غير المعترف بهم كمواطنين فى الإمبراطورية التركية، والذين تتجاهلهم السلطات التـركية والمرفـوضين كرعـايا عن طريق القناصلة الأوروبيين الآخرين، باللجوء إلى بريطانيا طلبًا للحماية، والتى لن يحصلوا عليها من مكان آخر، كـان يمهد الطريق لبريطانيـا لتصبح حامى الاسـتيطان اليهودى المستقبلى فى فلسطين.

على كل، لم يعتبر أبيردين أن وظيفة وزارة الخارجية المناسبة أن تطرح أفكاراً، بالذات الأفكار الجديدة، ولا يرى أى سبب للتحرك بعيداً عن القانون(*)، ولكن تهيبه لم يؤثر على الرجال الآخرين بالوزارة، فقد واظب كل من يونج وخليفته بالقنصلية فى القدس «چيمس فين» صهر «الربای» ماكاول وحوارى آشلى فى التدخل لصالح شعب الله القديم عند حدوث أى مشكلة، سواء كانوا مواطنين بريطانيين أم لا.

وبالفعل فإن إمكانية إحياء إسرائيل من وجهة نظر آشلى كانت تبدو فى قمة ازدهارها، بالرغم من تغير الحكومة؛ لأنه على الأقل نجح فى اغتنام أغلى أمنياته وهى بناء أبرشية أنجليكية فى القدس بواسطة الكنيسة الإنجليزية، بيهودى تحول للمسيحية ليصبح أول أسقف لها وكان هذا تتويجاً لإنجاز الجمعية اليهودية، علامة إحياء مملكة إسرائيل القديمة بأبرشية للكنيسة الإنجليزية، وكان كل هذا إنجازاً لكل طموحات آشلى؛ لأنه آمن بحماس شديد بـ «نبوءة إشعيا».

كانت الأبرشية تتوق لرعاية الملك البروتستانتى «فريدريك وليام - Fredrick William» ملك «بروسيا»(**) وممثل دولته «شيفالير بنسن - Chevalier Bensen» الذى عين لانجلترا لسبب خاص وهو مساندة -

---

(*) هذا تعبير محوَّر عن المعنى الأصلى، وهو «ضد القانون».

(**) جزء من ألمانيا.

آشلى فى مشروعه، كان أكثر جهد مشترك لهما أن يتغلبا على المعارضة التى تنشأ من القضايا العقائدية التى واصلت تأجيج العصر الفيكتورى. وعبّرَ حزب الأنجلو-كاثوليكى لحركة أكسفورد، التى كانت تحاول التوفيق بين الكنيسة الإنجليزية وكنيسة روما، عن استيائهم بأن تلك الأبرشية ستكون خطوة منحازة للبروتستانتية الصغرى، وكان «جلادستون» الذى كان صوتًا كبيرًا وقويًا فى الكنيسة الكبرى «منزعجًا ومحتارًا» وأفرغ ذلك فى الخطاب الذى أرسله إلى «بنسن» ويبلغ ٢٤ صفحة، يؤكد فيه أن غموض الخطة والجديد الذى تجلبه، قد أثرا تأثيرًا شديدًا على أعصاب مواطنيه.

أسرع بنسن وحاول استيضاح الحيرة فى مناقشة ظلت لمدة ساعتين. وسأل جلادستون: «ألن تفعل شيئًا لتنتفعوا من الأوضاع السياسية فى تصادفها مع أعراض إحياء الصهيونية؟».

بعد ذلك رتب آشلى لقاءً بين بنسن وپيل، الذى سيصبح رئيس الوزراء الجديد، ويهمس فى مذكراته بأمنيته أن يكون لدى پيل قلب مثل قلب «سليمان» كبير مثل رمال البحر؛ لأن هناك الآن قضايا ضخمة كافية لتملأه فرصة «**زرع – تحت راية الصليب – شعب الله على جبال القدس**».

ولم يعترض پيل، وبعدها بأسبوع فى (١٩ يوليه) جاء الدور على بنسن ليقول بعد مقابلة مع پالمرستون الذى لا يزال بالوزارة: «إنه يوم

عظيم . . تم الاعتراف بالمبدأ، لذا بدأت البداية لإحياء إسرائيل وإرضاء الرب».

جاءت الآن أعظم لحظات آشلى لاختيار الأسقف؛ حيث إن پالمرستون سيوافق على أى شخص يقوم بتعيينه، واقترح ملك بروسيا «ماكاول» لكنه رفض بسبب أنه كان يريد أن يتولى المنصب شخص من أصل عبرى، وآشلى كان يوافقه الرأى، وتم وقوع اختياره على المبجل الطبيب «أليكساندر» وهو إسرائيلى ينتمى للكنيسة الإنجليزية وأستاذ للعبرية والعربية بـ «كلية كنجز – King's College».

وتمت الموافقة على الاختيار، ثم ظهر عائق عندما كتب «پالمرستون» من استانبول أن السلطان رفض بناء كنيسة فى القدس، لكن پالمرستون أصر، وقال لـ «آشلى»: «لقد كتبت للورد پونسونبى لحثه على بذل قصارى جهده فى الأمر وأوصيه أن يقوم بالتأثير المطلوب على كل من السلطان والسفير».

وفى ٢٣ سبتمبر أصدر البرلمان قانون إنشاء أبرشية القدس، وتسلم آشلى خطابًا يخبره عن «الجيشان الكبير الذى أثارته القضية اليهودية فى «ليفربول»، وتم إلقاء ٢٤ موعظة فى أحد أيام الآحاد فى صالحنا» جاعلين اليهود بالفعل الموضوع المفضل للمجتمع الإنجليزى، لكن الحماس لم يكن عامًا، كان هناك مَن عارض الموضوع من الناحية العقائدية، بعض الأشخاص الذين احتفظوا باحتقارهم لأى حماس

لكل الديانات واعتبروا المسألة كلها حماسًا موجهًا بطريقة خاطئة. «كل الشـبـاب جن جنونـهم بالدين»، هكذا تذمـر اللورد «ميلبـورن» رئيس الحكومة.

لكن وزارة المحافظين الجديدة التى يرأسها پيل اكتسحها مد الحماس إن لم يكن الابتزاز لتقبل آشلى، الذى قام بتحذير أبيردين بمشاعر البلد الجياشة وبعواقب إعاقـة الأمر، وهو بنفسه كان يؤمن أن «حب شعب الله» المتجسـد فى الأبرشية هو أكثـر مبادئ المحافظين أهمـية، وسوف ينقذ البـلاد، وفيـما يبدو أن هذه كـانت وصفتـه للأزمة الحـالية التى أحدثتها مجاعة القمح التى كانت تجتاح البلاد.

وعلى أى حال كانـت مجهوداته فى هذا الوقت ناجـحة. وأكد له پيل أنه لن يقـوم بوضع أى عوائق، وحـتى أبيردين ارتاح، واعـترف بنسن أنه قـام بالبكاء من منـظر صديقـه العـزيز «آشلى» النبـيل لهـذا العالم، الذى حقق أشياء جيدة كثيرة.

كل شىء الآن جاهز للتكريس، توالت الخطابات بـين ملك بروسيا وآشلى وبنسن. لم يقم الملك منذ أيام داڤيد بلفظ مثل تلك الكلمات. قال آشـلى هذا بتعـجب عندما اسـتلم رسالة تشـجيع من «فـريدريك ويليام»، حتى إن الكثـيرين من رجال الكنيسة الكبـرى انضموا لهم بما فيهم الكاردينال مـانينج وأخيراً جلادستـون الذى على حد قول آشلى «تجرد من زى حزب المعارضة العـقائدية وتكلم مثل رجل تقى واقترح

نخبًا للأسقف الجديد»، طبقًا لـ «بنسن» قام بإلقاء خطبة بليغة، كانت مـثل شـــعـاع لطيف نصف شـــفـاف، وهو وصف مـلائـم لخطبـة جلادستون.

جلس رئيس أسـاقفة «كـانتربرى» الذى سيـقوم بإقـامة المراسم مع آشلى بالمكتـبة لمدة سـاعتين يتـحدثان عن اليـهود. «الرجل العـجوز المخلص مفعم بالحمـاس والإيمان للقضية»، وأكد أن «القضـية متأصلة فى قلب انجلترا»، سـتقام الخدمات المـقدسة فى ١٢ نوفـمبر. تغلب الطموح على الجميع، بالنسبة لـ «آشلى» كانت هذه ذروة كل ما قام به من عمل، ويجـدها «أمر مـثير أن يرى الـعبرانيين يعـينون عن طريق الكنيسة الإنجليـزية ليحملوا إلى المدينة المقدسة الحقـائق والبركات التى حصل عليهـا غير اليهود منهـا»، ربما سيحاول المعارضـون «أن يخفوا حقيـقة أنهم لا يقبلون أن أمـة اليهود ترتقى لتـولى مهام الأسـاقفة، فليكن، يمكننى أن أحتفل على قمة جبل صهـيون كعاصمة، وبكنيسة فى القدس، ووجود ملك عبرانى».

سيقوم الأسـقف أليكساندر بالوعظ لأول مرة فى ١٨ نوفـمبر فى «الكنيسـة اليهودية» كـما أطلق عليـها آشلى، وفى التاسع والعـشرين سيبدأ فــى القدس. وفى اللحظة الأخيرة حدثت مفـاجأة عندما رفض بيل أن يأخذ فى قارب تابع للحكومة الأسقف إلى سوريا، التى اعتقد آشلى أن مستواه يتطلب ذلك، وتحدث بيل عن غضب الحكومة التركية وأراد أن تتم الأمور فى هدوء.

وقـال في غضب: «لا أفـهم لماذا يجب علينا أن نـعطيه قـاريًا؟»، فكتب الرد عليه: «سأقول لك لماذا: ملك أجنبى (ملك بروسيا) ساهم بنصف تكاليف أبرشـية إنجليزية، والـشعب البريطانى سـاهم بالنصف الآخر، وهـذا يظهر الاهتـمام الشـديد والجارف، وكل مـا نريده من حكومتنا هو أن تقرضنا قاربًا ليأخذ الأسقف».

قال پيل: إنه سيتحدث إلى أبيرديـن، وهكذا انتهت محادثة قصيرة وأيضًا غير مـريحة وكريهة، ولكن لمفاجأته، تغلب آشلى عليـه، فبعد ثلاثة أيام قام پيل بإصدار الأوامـر اللازمة للإمبريالية البـحرية ليمكنوا الأسقف من السفر بواسطة قارب من الحكومة.

ثم جاءت أخبار أن الحكومة التركية ألغـت تصريحها بإقامة كنيسة، لكن پونسـونبى لمرة واحـدة أثبت شجـاعـة، وأرسل رسالة «تهـديد» شجـاعة إلى السلطان، وحتى أبيـردين احتقـر هذه الإهانة، على كل حال، بعد ذلك عاد إلى تهييـه المعهود وأمر يونج فى القدس أن «يمتنع بحـرص» عن تعريف نفـسه كـخادم لـلملك، بأى طريقة مع مـهمـة الأسقف، أو التدخل بأى شكل بين المواطنين اليهود والحكومة التركية.

لكن لم يلق أى شخص بالاً لـ «أبيردين»، وبالنسبة لـ «آشلى» كان قد تم الوصول للهدف الأسمى، لتـعزيز الحقيقة البروتستـانتية ورفاهية إسرائيل، وإعداد مملكة الرب المباركة.

ومـاذا بعد ذلك؟ مـاذا عن الآمال العظيـمة لتتحـقق؟، الحقـائق

العظيمة لتنشر الضوء العظيم الذى أشرق على العالم من أبرشية أنجليكية فى المدينة المقدسة يدعو شعب الله القديم للوطن؟ الحقيقة المؤلمة هى أن أحداً لم يرَ هذا، البابوية لم تذبل، البروتستانتية لم تتقدم، واليهودية لم تتغير، والحادث غير العادى - والذى تم نسيانه - والذى أضاف درجات كثيرة من الحرارة على الجدل الدينى فى العصر الفيكتورى لخصه فى تقرير كتبه مسافر إنجليزى هو «إ. واربرتون» صاحب كتاب «الهلال والصليب» حيث قام بزيارة كنيسة الأسقف أليكساندر فى عام ١٨٤٤م فى القدس، ووجد مجموعة مصلين مكونة من ثمانية يهود تحولوا للمسيحية، وسائحًا أو اثنين، «جبل صهيون ليس المكان المناسب لكى يضحى اليهود بديانة آبائهم»، أخبر شخص عبرانى واربرتون بهذا، ويبدو أنه لم يفكر أى شخص فى انجلترا بهذا.

نعى آشلى فقط موت القس أليكساندر سنة ١٩٤٥م والذى جاء فى توقيت غير مناسب، وكان آشلى هو الوحيد الذى سمح لهذا الشك أن يخترق عقله، لقد كان يتساءل قائلاً: «هل نحن قمنا بتصور مشروع فحسب ثم بعد ذلك تخيلنا أنه أحد أوامر الرب؟».

***

الفصل الرابع

فلسطين على طريق الإمبراطورية



لم يذهب مجهود آشلى هباءً بعـد. فكانت هناك فكرة سياسية فى لب خطته، رغـم أن الشكل الذى أراده لها يفتقد المعقولية إلى حد ما. وخـلال الإثارة التى أحدثتـها اقـتراحـاته، أصـبح الشعب البـريطانى تدريجيًا يدرك المميزات الاستراتيجية التى سيكتسبها عند وجود نفوذ له فى الشرق الأوسط. حملة نابوليون وانتصار نيلسون فى النيل والتاريخ الخيالى لصعود وهبوط محمد على والانتصار الرائع لـ «بالمرستون» فى الأزمة السورية والآمال الوهمية التى أثارها الهوس التبشيرى فى تنصير اليـهود، ووجـود أبرشيـة فى القدس، تضـافرت كل هذه الأحـداث المتركزة حـول الأرض المقدسة لتخلق شعـوراً خاصًا ومستـحوذًا حول فلسطين. أصبـحت فكرة وجود بريطانى هناك - خلال وسـيط ترعاه بريطانيـا، وهو استعـادة إسرائيل - تروق لعقـول أخرى غـير آشلى. ولكن أتبـاعه رغم ذلك أكـدوا بشدة أن البـراهين الاستـراتيجيـة التى أضافها تفتقر إلى الحماس القلبى بالنسبة للأهداف الدينية القديمة.

وقد كـان أكثـر خلفاء آشلى بعـدًا للنظر وإحـساسًا بـالقضيـة هو الكولونيل تشارلز هنرى تشـرشل، حفيد دوق مـارلبورو (وبذلك كان أحد أسلاف وينستون تشـرشل) والذى كان أيضًا ضابطًا بالجيش الذى أطاح بمحـمد على. لقـد كان تشـرشل منهـمكًا فى فكرته حينمـا تم وضعه فى دمشق فـى الوقت الذى ثارت فيه ضجة كبـيرة حول القتل

العرقى وزيارة «مونيتفيور»، وكان تشرشل هو الشخص الذى أرسل له مونيتفـيور فرمان السلطان لسنة ١٨٤٠م عن تمثيل الجالـية اليهودية فى دمشق. واعترافًا بمساعدة تشرشل فى قضيتهم خلال عام الرعب، فقد أقام يهود دمشق مأدبة تكريم له مع ضحايا الاتهام بالقتل الأربع عشرة الذين خرجـوا من السجن للتو. وكـانت خطبته فى هذه المناسـبة، أو خطابه الذى أرسله لاحقًا إلى مونيتفيور على وجه التحديد، بمثابة تغير فى الرؤية التبشيرية، من الهراء إلى وجـهة نظر أكثر واقعية. لقد كان يبدو أنه مـهتم بعـودة اليهود من أجلهم هم وليـس من أجل كونهم أدوات لتحـقيق النبـوءة، ولم يذكر أبدًا أن تنصـير اليهـود شرط مسبق أو مقـدمة طبيعية لعودتهم إلى جبل صهيون. وقد قال ليهود دمشق: إنه يأمل أن تكون ساعـة تحرير إسـرائيل تقتـرب، وأن تحتل الأمـة اليهـودية مكانتهـا بين قوى العالم مـرة أخرى. وأضاف أن انجلترا هى الدولة الوحـيدة المشجعـة للآمال اليهودية.

وبعد ذلك، وفى خطاب أرسـله إلى مونيتـفيور بتـاريخ ١٤ يونيو ١٨٤١م، أوضح تشـرشل النقطة التى طالما غـابت عن الجـميع حـتى الآن، وهى أن «اليهود هم الذين يجب أن يصنعوا بدايتهم». لقد كتب قـائلاً: «لا يمكننى أن أخـفى عليك رغبـتى الشـديدة فى أن أرى أبناء بلدتك يسعـون لاستعـادة وجودهم كشعـب مرة أخرى. وأعتـقد أن الهدف يمكن الحـصول عليه بالتـمام. ولكن هناك شيئـان ضروريان لا يمكن الاستغناء عنهما: أولاً أن اليهود أنفسهم بالإجماع هم الذين يجب

عليهم أن يبدأوا الأمر، وثانياً أن القوى الأوروبية يجب أن تساعدهم فى تحقيق أهدافهم».

لقد أثار حقيقة ثانية بعد ذلك، وهى المغالطة الكبرى فى سياسة بريطانيا فى تأييد الإمبراطورية التركية، وهى السياسة التى أصابت ديبلوماسية بريطانيا بالوباء عبر القرن التاسع عشر. وقد تنبأ تشرشل أن جهود بريطانيا فى هذا الصدد محكوم عليها «بالفشل الذريع»، فإن سوريا وفلسطين يجب حمايتهما من ذلك «الحكم الاستبدادى المتخبط والمتداعى» لدى الأتراك والمصريين، ويجب وضعهما تحت الحماية الأوروبية، وعندما يأتى ذلك اليوم يجب أن يكون اليهود مستعدين وقادرين على أن يقولوا: «نحن بالفعل نشعر أننا شعب». لقد حث تشرشل بحماس، مونتيفيور كرئيس لمجلس النواب اليهودى، الذين هم قادة المجتمع اليهودى بلندن، على أن يبدأ تحريك العجلة فى ذلك «الكفاح المجيد من أجل الوجود القومى»، وأن يحث النواب على أن يجتمعوا ويتناقشوا ويتحركوا.

وفى خطاب ثانٍ له بعد عام، اتبع تشرشل فكرة آشلى فى شأن الضمان البريطانى لحقوق اليهود، واقترح أن يلتمس يهود انجلترا والقارة كلها من الحكومة البريطانية أن تعين مفوضاً مقيماً فى سوريا لمراقبة مصالح اليهود المقيمين هناك وأمن ممتلكاتهم، ومن ثم تشجيع الاستعمار اليهودى «تحت رعاية وإقرار بريطانيا العظمى».

فاقت هذه الخطوة شجاعة النواب، فهم يمكنهم التحرك لصالح اليهود المنكوبين والمضطهدين فى حالات مثل حادثة دمشق، ولكنهم كانوا مهتمين أكثر بالكفاح من أجل تحقيق تحرير أهليهم فى وطنهم بريطانيا، ولم يكونوا ينظرون لأبعد من ذلك فى قضية القومية اليهودية. وبعد سنوات، كلما أصبحوا أكثر تحرراً، كلما قل حبهم بالطبع لفكرة القومية فى أى صورة من صورها (مع بعض الاستثناءات الجديرة بالذكر). وفى عام ١٨٤٢م لم يستطع حتى مونتيفيور نفسه تحريكهم، حيث تبنى المجلس قراراً يتأسف على أنه «حِيل بينه وبين إنشاء أى إجراءات لحمل وجهات نظر الكولونيل المحسن تشرشل محمل التنفيذ».

وأضافوا أن يهود أوروبا الشرقية والشرق الأدنى سيكون عليهم أن يقوموا بتوضيح أهدافهم قبل أن يغامر يهود بريطانيا بأى خطوة تأييد. ورد تشرشل قائلاً: إنهم ربما سيكون عليهم «السعى للتحقق من مشاعر وآمال اليهود فى باقى أوروبا فى مثل هذه المسألة المثيرة والمهمة» وهى «الاستعادة المنتظرة» لبلدهم ولكن لا يوجد دليل على أن الاقتراح قد لاقى قبولاً لدى المجلس.

لم ينصت يهود الغرب للاقتراح، ولم يستمع إليه يهود الشرق من خلف أسوار أحيائهم اليهودية، ولم يكن لدى تشرشل ذلك الإصغاء الذى كان لدى وزير الخارجية، أو الفرصة لتوجيه سياسة الدولة على مائدة العشاء

كما فعل آشلي. ففى الحقيقة خلال النصف قرن، أو بعد الخطوة الافتتاحية التى قام بها آشلى وبالمرستون سنة ١٨٤٠م، لم يكن هناك مؤيدون فى الدوائر العليا لقضية استعادة إسرائيل عدا آشلى نفسه. لقد استطاع أن يستمر فى صعود قمم مناصب العصر الڤيكتورى على مدى خمسين عامًا أخرى تقريبًا. لم يتخلَ عن القضية قط، بل عبّر عنها أحسن تعبير قبل وفاته بقليل. لقد ظلت علاقته مع بلمرستون - الذى عاد سريعًا إلى وزارة الخارجية واستمر لمدة عشر سنوات كرئيس للوزراء - علاقة حميمة كما كانت من قبل، ولكن كلاهما كان منهمكًا فى أمور أكبر خلال تلك السنوات. على أى حال فإن ذروة الحماس التبشيرى لتنصير اليهود قد انتهت آنذاك، وبانتهائها أصبح الدافع الخاص لدى شافتسبرى فى غير مكانه.

لقد كان المؤيدون الجدد لاستعادة إسرائيل أكثر اهتمامًا بعلاقتها بتقدم بريطانيا الاستعمارى تجاه الشرق عن علاقتها بتقدمها الروحانى تجاه السماء. وقد كتب الكولونيل تشرشل فى كتابه «جبل لبنان»: «يجب أن يكون واضحًا لكل عقل إنجليزى، أنه للحفاظ على التفوق الإنجليزى فى الشرق، يجب أن يطول نفوذنا - بشكل أو بآخر - سوريا ومصر». لقد كان الكتاب نتاج إقامته فى الشرق الأوسط لمدة خمسة عشر عامًا، وتم طبعه سنة ١٨٥٣م أى قبل حرب «الكريميان» بعام، حينما كان التذمر العام فى الشرق يترجم كالعادة كمؤشر لسقوط الإمبراطورية التركية.

وقد تنبأ تشرشل (تنبؤًا صحيحًا رغم أنه سابق لأوانه) أنه حينما تكون فلسطين غير تركية يجب أن تصبح إما إنجليزية أو دولة مستقلة. وقد جعله الأمل يصيح على الطريقة «الآشلية» البليغة قائلاً: «إنها أرض عظمة يعقوب وقوة إسماعيل ومزمار داود وسلالة إشعياء وعقيدة إبراهيم وحب عمانوئيل، والتى بدأت فيها معجزات الله مع الإنسان والتى سوف يتم فيها تحقيقها بعد زمن طويل. إن هذه الأرض تناشد حقوق الحماية اليقظة والاهتمام المتعاطف والرعاية من بريطانيا». لم يكن صوت تشرشل هو الوحيد الذى ينادى بتلك الحماية للمصير اليهودى فى فلسطين، فقد عاد الرحالة واربيرتون من رحلته فى الشرق، ولم يخفق فى إظهار هذه النقطة. وفى عام ١٨٤٤م أصبح الجميع يقرأون كتابه «الهلال والصليب» والذى مر بسبع عشرة طبعة على مر البضع وأربعين سنة اللاحقة. يلخص الكتاب تجربة أجيال من الحجيج للأرض المقدسة، ويقول المؤلف إنه وجد فيهم «نوعًا من الوطنية لفلسطين». لقد أثار الكتاب العواطف بذكره لأسماء الأماكن الفلسطينية المألوفة لدى الآذان منذ الطفولة،والإثارة فى أنه تم استقباله بواسطة «شيوخ على طراز النبى إبراهيم والذين يحتفلون به على المائدة التى كانت توضع أمام الملائكة».

ولكن هذا لم يخف عن ذلك الرحالة اليقظ، حقيقة أن خطى إبراهيم تشير إلى ما يسمى أقصر طريق إلى الهند، المكان الذى لم

تستطع الحروب الصليبية أن تنشئ موطئ قدم فيه، «فإن مصالح الهند ربما تجلب ما لم يجلبه قبر المسيح». وحيث إنه يعترف بحساسية ذلك الموضوع، فكان الكاتب يمر عليه مسرعًا إلى مواضيع أخرى، فقط ليعود إليه مرة أخرى. وفى كل مكان فى رحلاته -كما يقول- فإنه كان يرى فيه توقع قدوم انجلترا إلى الشرق. وحينما يموت الباشا العجوز «المعتوه» محمد على يجب على انجلترا ألا تسمح لمصر بأن تعود إلى «طاغية الباب العالى العثمانى الأبله». ولكنها يجب عليها «أن تؤكد بجرأة» حقها فى طريق عبر مصر إلى الهند، وأن تجلب للبلد «الحرية للشعب» (وهذه عبارة حينما يستخدمها كاتب إنجليزى فإنها تعنى الحرية من الأتراك).

لم يلحظ واربيرتون فى اليهود إمكانية كونهم خطوة مسبقة للاحتلال البريطانى، ولكن اللورد «ليند ساى» الذى سبقه ببضع سنوات، والذى أوحى كتابه لـ «آشلى» بكتابة مقاله الجديد والأول من نوعه فى جريدة «كوارترلى ريفيو» اقترب أكثر من هذه النقطة. وحيث إنه كان يسير «على خطى الإسرائيليين نحو الأرض الموعودة»، وحيث إنه ينتابه «سرور عجيب ومثير» كلما أعاد قراءة خريطة البحر الأحمر، متخيلاً دولة إسرائيل أمام عينيه، وحين كان يخيّم ليلاً فى الصحراء، أو يدق وتدًا فى خيمته كان دائم التفكير فى مستقبل الشعب المختار.

لقد كان مقتنعًا أن عقم واضمحلال أرض فلسطين لم يكن بسبب لعنة أصابت الأرض، ولكن ببساطة بسبب «عدم وجود سكانها القدامى».

وكـان يؤمـن بـأن إرادة الله هى التى شـاءت «ألا يكون السـكان الحـاليـون كثيرى العدد على الإطلاق» حتى لا يعوقوا عودة «الورثة الشرعيين»، وكان يؤمن أن الأرض التى كـانت خـصـبة من قـبل «تنتظر فـقط عـودة أولادها المنفيين، وتطـبيق الصـناعة التى تـناسب قدراتها الزراعـية حتى تـنطلق مرة أخرى لتكون فى حـالة رخاء وترف تام، وتعـود كما كانـت دائمًا أيام النبى سليمان».

وتعد السـيدة «فـرانسيس إجـيرتون - Lady Francis Egerton» رحالة مغـامرة أخرى وجدت نفـسهًا مسـتـشعرة بفضـول نحو أحوال شعب الله القديم، حينما كانت تتجول فى البلد، وترى فى كل جانب صوراً حية لـ «موسى» و«إيليا». وكانت تدخل بيوتًا ومعابد يهودية فى القدس بدافع الفضول، تسأل أسـئلة مبشرى لندن وتناقش اضطهادات دمشق ونظـريات العودة. لقد كـانت تلاحظ باسـتمرار ذلك الشـعور الذى تم ذكره فى كـتب كثيرة جدًا عن الرحـلات فى ذلك الوقت، وكان ذلـك الشعور هـو أن تلك الأوقات هى أوقـات «حاسـمة» وأن هناك شيئًا ما فـوق العادة على وشك الحدوث، ومرتبط بشكل غامض وبطريقة مـا بتحقـيق النبوءة الموعودة إلى جـبل صهيون. لقـد كانت السيـدة فرانسيس تـعلق ذلك على التوقع العـام لانهيار الإمـبراطورية العثمانية، والاعتقاد بأن الفراغ الناتج عن ذلك فى فلسطين سوف يملأ بعودة اليهود. وكانت تجد رغم ذلك أن الانطباع السائد فى انجلترا عن

«اندفاع أفواج» اليهود إلى فلسطين شيئًا خياليًا، وكان رأيها أن اليهود لن يعودوا أبدًا قبل أن يتم تنصيرهم، لقد كان كتابها -كما تقول- مجرد مذكرات خاصة بها، وقد تم نشره عام ١٨٤١م بناءً على توسل وإلحاح أصدقاء لصالح جمعية مدرسة سيدات أيرلندا، ووجد الكتاب طريقه إلى منضدة حجرة نوم البارون المتملق «بونسين».

لقد أثبت التقرير عن الموت المنتظر للإمبراطورية التركية، والذى بدا وشيكًا فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، أنه خبر مبالغ فيه للغاية؛ حيث إن غيبوبتها ظلت مزمنة لمدة سبعين سنة أخرى. ولكن كان يعتقد فى ذلك الوقت أن الأرض المقدسة ستكون متاحة لملكية جديدة. وأنه ليس هناك شيء أكثر طبيعية وملاءمة من عودة المستأجر القديم مع مالك أرض جديد! لقد راقت الفكرة لمجموعة من العقول الإنجليزية. وقد كتب «د. توماس كلارك - Dr. Thomas Clark» فى رسالة له بعنوان «الهند وفلسطين» أو «رؤية عودة اليهود فى ظل العلاقة بأقصر طريق إلى الهند»: «لو تمت إزاحة القوة التركية، سوف يتم إعادة فتح الطريق التجارى القديم». واستمر قائلاً: «إن اليهود أساسًا شعب تجارى، وهل هناك شيء أكثر طبيعية من أنهم يجب أن يتم ترسيخهم على طول الطريق العام العظيم للتجارة القديمة؟ ... وهل توجد أيد أكثر مهارة يمكن وضع التبادل التجارى بين الغرب والشرق فيها ؟.. ستكون سوريا فى أمان فقط وهى فى أيدى أناس شجعان وأحرار ومتدينين ومشبعين بعاطفة

القوميـة إلى حد كبيـر.. ومثل هؤلاء الناس تجدهم فى اليهـود... فقط أعد إليـهم قومـيـتهم ويلدهـم مرة أخـرى، ولن توجـد قوة على وجـه الأرض تستطيع أخذها منهم».

وتم نشر كتيب مشابه سنة ١٨٤٤م بعنوان «مقال دينى للعصور .. التمـاس لليهود» للكاهن «صمـوئيل أ. بردشو - Sumuel A Bradshow» اقتـرح فيه أن البـرلمان يجب أن يمنح أربعة مـلايين جنيه وأن تجـمع الكنائس مليونًا آخـر وذلك لعـودة إسرائيل. وفى نفس العـام انعقدت لجنة فى لندن بهـدف إنشاء «الجمعية البريطانيـة والخارجية من أجل تعزيز عودة الشعب اليهودى إلى فلسطين». ورغم أن الجمعية فى ميلادها إلا أنه مـن المثير أن نلاحظ أن الخطاب الافتتـاحى الذى ألقاه رئيس الجمعـية المبجل «ت. تولى كريبـاس» قد حث على «أن تضمن انجلترا من تـركيا التنازل عن فلسطـين بأكملها، من الفـرات إلى النيل ومن المتـوسط إلى الصحـراء». يا للأفكار الكريمة التى كـانت لدى الرجال الإنجليز فى تلك الأيام عن تلك المنطقة التى يجب إعادتها إلى ملاكها القدامى، رغم أن فلسطين آنذاك كانت فى ملكية آخرين!

ماذا كان فى ذهن السيد كريبـاس حينما تحدث عن المنطقة من النيل إلى الفـرات؟ بالطبع هو ذلك المفـهوم الأصلى للأرض الموعـودة التى تم وضع حـدودها فى ذلك اليـوم عندمـا قطع الرب مع إبرام مـيثـاق قـائلاً: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات (سفر التكوين ١٥: ١٨).

كانت تلـك الأرض هى أرض كنعان القديمة، الأرض الـتى وعدها الرب ثانية لموسى ثم مرة أخرى ليوشع. لقـد كان الرب واضحًا تمامًا. كـان على القبـائل [الأسـباط] الاثـنتى عشـرة أن يطردوا الكنعـانيين والحيثيين و. . . و. . . و«كل موضع تدوسه بطون أقـدامكم لكم أعطيته كما كلمت مـوسى، من البرية [صحراء سيناء] ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات» (سفر يشوع الإصحاح الأول: ٣).

وفى الحقيقة فإن مملكتى «يهوذا» و«إسرائيل» اللتين تم إنشاؤهما لم يحـتلا مكانًا آخـر غيـر هذه المنطقـة. لقد توسـعا من دان إلى «بيـر شبـعه»(*)، ومن البحـر المتوسط إلى شرق الأردن. وهـذه هى المنطقة التى كانت تعـتبر فلسطين، وظلـت هى التصور العـام لفلسطين حتى جـاءت القوانين والتـفويضـات وبدأت فى تمزيقـها. وكـانت فلسطين بالنسـبـة لأجـدادنا البـسطاء هى ببـسـاطة أرضًا عـهـد الله بهـا إلى «إســرائيل»، ولم يفكروا أو يـلقـوا بـالاً لولد إبراهيم الآخــر وهو إسماعـيل. يا للرعد الفيكـتورى المدوى الذى كان سيـحتاج كلاً من السيـد المبجل «كريبـاس» واللورد «شافتـسبرى» لو أنهـما عاشـا حتى ١٩٢٢م ليـريا كل فلسطين شرق الأردن تم اقـتطاعـها لصـالح الأبناء العرب لإسماعيل! ويا للحظات انفجار البلاغة التى كانت ستلقى على

(*) بير سبع.

أثر الخطة التقسيمية التى تركت إسرائيل بدون(*) «الخليل» حيث تم دفن إبراهام، وبدون «شيلوح - Shiloh» حيث تم وضع «تابوت العهد»، وبدون «دوثان» حيث تم بيع يوسف، وبدون «بيت الله» حيث حلم يعقوب، وبدون «أريحا» حيث انتصر يشوع، وبدون «بيت لحم»، ويا للصمت البغيض الذى كان سينتج كرد فعل على اقتراح أفضل عقول الأمم المتحدة بوجود دولة يهودية رائعة ولكن بدون أورشليم!

بالطبع فإن أجدادنا عاشوا فى جهل سعيد عن الثروة الموجودة تحت قشرة الصحراء، والسائل الذى تفوق قيمته حتى ذلك الماء الذى تدفق من الصحراء لينقذ «هاجر» وابنها المحتضر «إسماعيل». ربما كان ذلك التدفق المائى الأسطورى عبارة عن فأل يبشر بما سيحدث. على أى حال، فإن ولد «هاجر»، والذى يتمثل الآن فى دول جامعة الدول العربية، يحتل الآن خارج فلسطين مساحة ضعف مساحة الإرث اليهودى بفلسطين، بالإضافة إلى قطعة كبيرة من فلسطين نفسها أيضاً.

ولنعد مرة أخرى إلى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، فهناك حدث كبير فى ذلك الوقت، بجانب الانهيار المتوقع للباب العالى

(*) تتحسر المؤلفة فى أسى عن إقامة إسرائيل على الأرض العربية عام ١٩٤٨م دون أن تضم فى حدودها - حسب تقسيم الأمم المتحدة - ما ذكرته. وقد طُبع هذا الكتاب بالإنجليزية أول مرة عام ١٩٥٦م، ثم أعيد طبعه عام ١٩٨٤م، ثم عام ٢٠٠١م. وقد ماتت المؤلفة عام ١٩٨٩م.

العثـمانى، قـد جعل الشرق الأوسط مـنطقة ضرورية للغـاية من أجل السيطرة على الطـريق إلى الهند. وكان ذلك الحدث هو الإبحـار بطاقة البخار. لقد أصبحت البواخر تعتمد على موانئ متعددة من أجل إعادة التزويد بالفحم، وبالتالى استخدمت الطريق المشترك بين البحر المتوسط والأحمـر فى التنقل بين سـفينة إلى أخرى بـين البحرين فى الـسويس (حـيث إن قناة السـويس لم تكن حُفـرت بعـد) بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح حول أفريقيا. وفى عهد ١٨٤٠م أنتجت شركة (P&O) باخرة تسير من انجلترا إلى الهند عن طريق الـبحر الأحمر. وهذه أيضًا تم استخدامها من قبل مـؤيدى إعادة إسرائيل لتأييد وجهة نظرهم؛ ففى ١٨٤٥م اقترح «إ.ل ميتفورد» من «الخدمة المدنية السيلانية – Ceylon Civ-il Service » إعادة بنـاء الوطن اليهـودى فى فلسطين كدولة مـحمـية تحت وصاية بريطانـيا العظمى. وبين المميـزات التى «لا تحصى» التى تنبـأ بها ميتفورد هى أن مثل هذه الدولة سوف «تضع إدارة الاتصال الملاحى فى أيدينا تمامًا». وكان يعتقد أيضًا أن هذه الدولة سوف «تضعنا فى الموقف المسيطر (فى الشام)، ومن ثم يمكننا كبح عمليات التعدى هناك وإرهاب الأعداء وردعهم وإيقاف تقدمهم إذا لزم الأمر».

وجاء مسئول آخر من مكان آخـر من الإمبراطورية البريطانية، وهو الكولونيل چورچ جـاولر الحاكم السابق لجنوب استـراليـا، وقدم خطة تفصـيلية لتحـقيق نفس الهدف. لـقد حث هو أيضًا على الاسـتيطان

اليهـودى فى سوريا لمنع تطفـل أى قوة أجنبيـة أخرى. وكـان يقول: «انجلترا تحتاج بشدة إلى أقصـر وآمن خطوط الاتصالات.. إن مصر وسوريا يمثلان طرق مواصلات رئيـسية، ووجود أى قوة كبرى مـعادية فى إحداهما سوف يهـدد التجـارة البريطانيـة فى الحال.. وعلـى انجلترا الآن أن تتـحرك لإحيـاء سوريا على أيدى الأناس الوحـيدين الذين ستـتركز طـاقاتهم على نحو واسـع النطاق ومستمر فى العـمل، وهم أبناء الأرض الحقيقيون - أبناء إسرائيل». ومثل الكولونيل تشرشل فإن جاولر كان يعود مراراً وتكراراً إلى أطروحـتـه ليـحث بهـا كل الأطراف. لقـد تعـرف جـاولر على مـونتيـفيـور واصطحبـه فى عمليـة مـسح الأراضى فى فلسطين سنة ١٨٤٩م. وفاق جاولر شافتسبرى الذى لم يكـن مهتمًا بناحية الإنفاق المالى من قـبل الدولة الضـامنة، وقـال إن على القـوى الكبـرى تقـديم المسـاعدة المـادية لخطة تعويض اليهـود عن المعاملة التى تعـرضوا لهـا. وقد حث اليهود عـلى التحرك بسرعة والظـهور على إثر سقوط تركيـا والمطالبة «بجرأة وبقـوة» بحقهم فى فلسطين، مع ملاحظة أن «هذا الإرث ينتمى إلى رب إسـرائيل وإلى شـعـبه القـومى»، وحـثـهم أيضًـا فى النهـاية على «أن يتمسكوا بإرثهم على جبال إسرائيل».

والحـقيـقـة الجـديرة بالذكـر هى أن رجال الدين ورجـال الجـيش العـسكريين أو «رجـال الكتـاب المقـدس ورجـال السـيف» كـانوا أهم المسيطرين على هذه المناقشات حول عودة إسرائيل إلى فلسطين. حتى

إن مذكرات السيدة فين تكلمت فيها عن المصالح العسكرية فى المنطقة! فى عـام ١٨٥٨م رست سفـينة حربيـة بريطانية فى يافـا وعلى متنـها مجمـوعة شخصيـات متميزة. لقـد كان الأمير ألفـريد الابن الأصغر للملكة الذى كان يبلغ من العـمر أربعة عشـر عامًا على ظهر السـفينة كطالب عسكرى وكـان يرافقه مـعلمه الميجـور كاويل، وقائد السـفينة الكابتن تارلتون، فى رحلة أقامـتها عائلة فين. وتتذكر السيدة فين أنها طوال الطريـق إلى بيت لحم كـانـت تتناقش مع كلٍ مـن الميـچـور كـاويل والكابتن (وكلاهمـا كان على علم واسع بالكتاب المقدس) حـول التنبؤات عن مستقبل هذه الأرض واليهود.

لم يذكر شيئًا عن الميجور والكابتن غير ذلك، وفى نفس الوقت فإن كلاً من القنصل والسيدة فـين استمر فى طريق شافتسـبرى التقليدى فى هذا الشأن، وظلا يبذلان جهوداً محلية من أجل تمكين اليهود من غرس أنفسـهم فى أرضهم. لقـد حاولت عائلة فين مـثل مونتـيفيـور أن تبدأ المشـروع من الوضع القائم حـاليًـا، وهو الجاليـة اليـهودية القـديمة فى القدس. كانت الجالية عبارة عن حـوالى أربعة آلاف من أبناء اليهود الإسپان الذين تم طردهم فى عام ١٤٩٢م(*)، وسمح لهم سليمان الأكبر «بالاستقرار فى القدس «سـفارديم – Sephardim» وتتكون أيضًا مـن حوالى ثلاثة آلاف يهودى من «الأشكيناز – Ashkenaz» وهم مكافحون فقراء من وسط أوروپا،

(*) عندما انتـصر الكاثوليك على المسلمين فى إسپـانيا، وضعوا اليـهود والمسلمين بين خيارين: إما التنصر، وإما الطرد – المترجم.

أتوا إلى القدس لتوطيد جذورهم على جبل صهيون(*). ولكنهم غرقوا بشكل كبير فى حالة «فقر ميئوس منها» بسبب رفض السكان المحليين تشغيلهم من ناحية، ويسبب الديكتاتورية الجبرية التى قيدتهم بحالة تشبه حالات الأقليات اليهودية فى القرون الوسطى من ناحية أخرى. ورغم تلك الصعوبة فقد استطاعت عائلة فين التى كرست نفسها لتنصير اليهود أن تحرز تقدمًا طفيفًا. لقد كانوا فى غاية اللباقة، حتى إن السيدة فين تقول: إنها كانت حريصة على أن تخفى الصليب عن نظر المرضعة اليهودية التى أحضرتها لأطفالها؛ حيث إنها كانت متفهمة لمشاعر أصدقائنا اليهود تجاه الموضوع. ولكن كيف كانت فى نفس الوقت تؤمن تمامًا وتتوقع أن إسرائيل يومًا ما ستحقق الشروط الإلهية؟ فهذه مفارقة ظاهرية لن أحاول تفسيرها. أيًا كان السبب، فإنه جعلهم مقتنعين- على حد قول السيدة فين- أن هذا العمل سوف يتقدم وأن الأرض المقدسة سوف يسكنها ملاكها الشرعيون مرة أخرى، وهم الأمة العبرية، وسوف تتفتح كالزهرة مرة أخرى.

وقد مضوا قدمًا على هذا الأساس. لقد قاموا بتنظيم مشاريع عمل، ليس فقط لمنح اليهود العاطلين فرص عمل مربحة، ولكن أيضًا للمضى قدمًا فى استصلاح الأرض. لقد تم استئجار الأرض اللازمة لإقامة مشروع رى، رغم أن النتائج كانت يرثى لها؛ حيث إن

(*) ولن يكون بعيدًا عن الحقيقة أن نستنتج أن هؤلاء اليهود الأوروبيين قد هاجروا من أوروبا بسبب اضطهادهم إلى أرض فلسطين، كما فعل أولئك اليهود الإسبان - المترجم.

المستفيدين من المشروع ضعفاء جداً لدرجة أنهم لا يستطيعون قطع ذلك الميل سيراً إلى الحقل. ووصل السيد ساندفورد، وهو جراح إنجليزى وواحد من المجموعة الضئيلة المساعدة لعائلة فين إلى اكتشاف أن ارتفاع معدل الوفيات بين اليهود كان «أساساً بسبب افتقارهم للغذاء». ولو أنهم قبلوا العمل لدى غير اليهود سوف يتبرأ منهم الحاخامات. ولكن عائلة فين ظلت مثابرة. وكتبت السيدة فين رسائل متواصلة للوطن فى محاولة منها للحث على وجود مساعدة مادية من بريطانيا لليهود. ولكن من المحبط أنها وجدت أن القليل من البريطانيين كانوا مقتنعين أن «اليهود سوف ينجحون أو أن الأرض المقدسة تستحق الاستصلاح».

ولكن رغم ذلك، فقد وجدت من المقتنعين ما يكفى لتمويل شراء قطعة أرض، أطلق عليها اسم «حقل كرم إبراهام»، ولكن لم يتم إنجاز الكثير فى ذلك الشأن غير التخفيف المؤقت لآلام أكثر اليهود فقراً. ورغم ذلك فإنهم ظلوا مثابرين لسنوات، واستمرت «جمعية تعزيز العمل الزراعى اليهودى» التى أنشأوها فى ذلك الوقت فى الوجود بأسماء مختلفة، آخرها جمعية «الانتداب».

وظل القنصل فين طوال وجوده فى القدس يعمل من أجل مصلحة اليهود. ففى عام ١٨٤٩م حث مكتب وزارة الخارجية على أن يمنحه قوات حماية كل اليهود الروس الموجودين فى فلسطين، فى الوقت الذى نبذتهم

فيه الحكومة الروسية نفسها. وكان دائمًا على استعداد لجعل الباشا يقوم بتطبيق الحقوق اليهودية بالقوة والتعامل مع أى حالة اضطهاد ضد اليهود. وقد نجح ذات مرة فى جعل جندى تركى ينال عقابه وتوبيخه علنًا أمام الموقع العسكرى بأكمله؛ وذلك بسبب الإهانة التى ارتكبها ضد يهودى فقير منذ أربعة عشر شهراً، مما «أدهش السكان اليهود على حد كبير».

وحاول القنصل فين سنة ١٨٥٧م مرة أخرى إحياء خطة شافتسبرى القديمة وتمريرها إلى وزير الخارجية التالى، إيرل كلاريندون، وقدم له خطة تفصيلية «كى يقنع عدداً كبيراً من اليهود على الاستقرار هنا كمزارعين على الأرض. . . بالمشاركة مع الفلاحين العرب». ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار ما تعنيه كلمة «يقنع» فإن الوقت لم يحن بعد؛ حيث إن الإرادة المطلوبة لم تكن موجودة بين يهود أوروبا بعد.

بينما كانت تلك الإرادة فى طريقها، كانت هناك أيضًا شخصية فى انجلترا تعد لدور يؤدى إلى تمكين الإمبراطورية البريطانية من حدود فلسطين. وكان يقال إنه لم يوجد أحد سوى اللورد شافتسبرى يمكنه فرض سياسة بين مؤيدى القرن التاسع عشر لسيادة إسرائيل المسيحية على أرض فلسطين، ولكن هناك استثناء بارز واحد، وهو أكثر الشخصيات إثارة فى التاريخ الإنجليزى، وبالطبع فإن هذه الشخصية هى «ديزرائيلى - Deisraeli». ورغم أنه لم تكن له علاقة بموضوع عودة إسرائيل، فإنه من السخيف حذفه من القصة مثل سخافة حذف

الشبح من مسرحية «هاملت». ولكن فى ضوء علاقته بذلك الشأن، وفى ضوء علاقته بعصره وبلده، فإنه رجل يتحدى كل تصنيف. لقد كان الوحيد الذى لم يكن أساسًا رجل دين بين الڤيكتوريين البارزين. فقد هجر اليهودية ولم تؤثر فيه المسيحية التى اعتنقها من أجل النفعية، ولم تعن له النبوءة شيئًا. ومع ذلك فقد شعر بإيمان قديم الأزل تجاه فلسطين لا يمكن تفسيره. لقد كتب بعاطفة جياشة فى «ألروى» عن إحياء مملكة إسرائيل، ولكنه لم يأخذ خطوة سياسية واحدة تجاه تحقيقها(*). لم يلحظ «ديزرائيلى» اقتراحات مدرسة شافتسبرى وتشرشل، ولم يساهم فى مشاريع مونتيفيور، ولا ينتمى لليهود المؤمنين بالقومية؛ لأن قوميته هو كانت مستقلة وفريدة. لقد كان صوت تراث إسرائيل وليس مصيرها. لقد كان مهتمًا بديون العالم تجاه اليهود، وليس مستقبل اليهود فى العالم.

لقد كان يسأل أعضاء المجلس فى مناقشة حول تحرير اليهود قائلاً: «أين مسيحيتكم إن لم تؤمنوا بيهوديتهم؟» ويستطرد قائلاً: «عند مذبح كل كنيسة تجد الشريعة اليهودية. كل المسيحيين الأوائل كانوا يهوداً.. كل مَن بشر بالمسيحية ونشرها كان يهوديًا.. إذا لم تنسوا ما تدينون به لذلك الشعب.. فعليكم - كمسيحيين - أن تكونوا على أتم استعداد لانتهاز أول فرصة للاستجابة لطلبات أولئك الذين يعتنقون اليهودية». لقد خاطر

(*) نختلف اختلافًا كاملاً مع الكاتبة القديرة فى هذا، ولعل ما سيجىء فى الفقرات القادمة للكاتبة يناقض هذا - المترجم.

بمستقبله السياسى بإلقاء هذا الحديث(*). مع أنه كان عضواً فى المجلس، يعتمد على زملائه المتقدمين عليه فى الحزب، فكان على الرغم من ذلك الوحيد فى حزب المحافظين الذى يتحدث فى صالح المشروع، وفى كل عام يعرض فيه مشروع القانون على المجلس كان يذهب إلى جانب الليبراليين ليصوت لصالح مشروع القانون ضد حزبه.

أظهر الفخر بجنسه وتراثه اليهودى، وكرر ذلك فى رواياته، وفى مقدمات الطبعات الأخيرة منها، وفى الفصل الشهير عن اليهود الذى ظهر فجأة وسط السيرة الذاتية السياسية للورد «چورج بينتينك» كتب قائلاً: «لقد اكتشف العالم فى ذلك الوقت أنه من المستحيل تدمير اليهود.. وأن محاولة صد قوانين الطبيعة الثابتة التى تقر أن الجنس السامى لن يدمر أبداً ولن يستعبد بجنس أقل منه مرتبة، ستكون محاولة دون جدوى». لقد كان يؤمن مثل ماثيو أرنولد أن قوة وعزم انجلترا مشتقة من القوانين الأخلاقية للعبرانيين التى انتقلت إلى الإنجليز عن طريق الكتاب المقدس، وكان يقول إن انجلترا «رغم نظامها اللاهوتى الناقص والضئيل ظلت دائماً تتذكر صهيون».

الخلاصة أن «ديزرائيلى» ساهم فى التقدم البريطانى نحو فلسطين، ليس لكونه يهودياً على الإطلاق، بل كصانع إمبراطورية. فقد كان يشعر بإغراء نحو الإمبراطورية البريطانية أكثر من فلسطين. لقد تم

(*) هل هناك ما يفعله ديزرائيلى أكثر من ذلك لليهود؟ - المترجم.

توسع بريطانيا من الشرق خلال القرن التاسع عشر تحت توجيهه، بل

كان من صنعه. ففى الماضى توقف ريتشارد قلب الأسد ليأخذ قبرص فى طريقه إلى الأرض المقدسة. وحينما أعاد ديزرائيلى قبرص لبريطانيا سنة ١٨٧٨م أدرك أن القضايا التنظيمية للإمبراطورية سوف تجعل فلسطين هى الخطوة التالية، وبشرائه لقناة السويس جعل هذه الخطوة محتومة.

ولكن كل ذلك كان لا يزال سابقًا لأوانه فى الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وكان ديزرائيلى عضو البرلمان حديث العهد، مشهوراً برواياته الأنيقة وقوته المريبة التى جعلت أعضاء المجلس يدركون بعدم ارتياح، أن البطة الصغيرة الموجودة بينهم سيأتى عليها اليوم وتصبح نسراً. وفى عام ١٨٣١م كان «ديزرائيلى» فى رحلة من اليونان لمصر، وكان كل مكان توقف عنده بمثابة مشهد للمجد القديم، وكل يوم فى رحلته بمثابة أثر للطريق الإمبريالى فى الماضى. «الأكروبول» باليونان والأهرامات بمصر وآثار الإسكندر وقيصر ومحمد على وجنود الحملات الصليبية، وفوق كل ذلك المقابر، و«المعبد» المحطم الخاص بجنسه، كلها كانت تتوهج مثل جواهر التاج فى ذهنه. وقد كان له لقاء رسمى مع السلطان فى القسطنطينية، ومع الباشا محمد على فى الإسكندرية. وأبحر من قبرص إلى سوريا ماراً بكل من بيروت وعكا إلى يافا، ثم فى النهاية امتطى التلال المهجورة الخربة وهو مدجج

بالسلاح ومزود بالشاحنات حتى وصل إلى المدينة التى أمعن النظر فيها وهى «أورشليم».

وكـانت الأيام التاليـة من أبهج أيام حـياته. فـقد تذكـر هناك كل الأمجاد المتراكمة للمـاضى، وكل الحنين للقرون النائية. لقد قضى فى القدس أسبوعًا فقط، ولكنه قـبل رحيله قد بدأ بالفعل فى كتابة رواية عن «الحادثة الرائعة فى سجلات تاريخ الشعب المقدس العاطفى، الذى انتمى إليه دمًا واسمًا. وتلك الحـادثة كانت الثورة اليهودية التى قادها المسيح الزائف «ديڤيد ألروى» «أمير العبودية». ضـد خليفة بغداد فى القرن الثانى عشر. غالبًا مـا كان أبطال «ديزرائيلى» لهم علاقة بالسيرة الذاتيـة، ومن الصـعب ألا ترى فـى «ألروى» انعكاسـات ذات طابع السيرة الذاتية، تشير إلى الحلم الداخلى.

فى هذه الرواية يقـول الحكـيم اليـهودى مـجيـبًـا: «... مـاذا أريد؟ ... الوجود القومى الذى لا نملكه... ماذا أريد؟ ... أرض الميعاد ... ماذا أريد؟ ... القـدس... ماذا أريد؟ المعـبد... مـاذا أريد؟ كل ما خـسرناه ... كل مـا تطلعنا له... كل ما حاربنا من أجله ... بلادنا الجميلة .. عقيدتنا المقدسة ... أخلاقنا البسيطة وعاداتنا القديمة...».

لقد كتب «ديزرائيلى» ذلك الكلام بإحـساس صادق وقوى، وعلى عكس النثر المنمق الذى يملأ باقى صفحات «ألروى»، والمزخرف بكلام عن المشغولات الحـريرية والسيوف المعقوفـة والحكّام والمتآمرين وينابيع

الزئبق والأميرات المثيرات، فإن هذا النص بالتحديد يمكن تمييزه بسهولة. يقول المؤلف نفسه: إن رواية ألروى تمثل «حلمه النموذجى». وإنه من الغريب حقًا لو أن «ديزرائيلى» الشاب لم يحلم أنه شخصيًا ربما يكون مقدر له أن يعيد القومية لشعب اليهود، خاصة لما كان لديه من فخر بجنسه وطموح ملتهب، وأنه يقف وسط الأماكن المحيطة الرفيعة التى كان يحكمها أجداده.

ولو كان «ديزرائيلى» قد حلم بذلك، فإن حقائق سياسات انجلترا التالية تتماشى مع حلمه. فبعد أربع سنوات دخل «ديزرائيلى» البرلمان عاقدًا العزم على أن يكون رئيسًا للوزراء وليس أقل من ذلك. ويقول اللورد «فليبورن» عن ذلك: والله إن الرجل سيفعلها قريبًا، وعندما نشر روايته الشرقية «تانكرد» فإنها أوضحت أنه على طريق تحقيق هدفه، وأنه لم يعد مهتمًا بمملكة إسرائيل بل بإمبراطورية انجلترا. لقد عزم أن يناقش فى هذه الرواية بحث «انجلترا الحديثة» عن الإحياء الدينى. وكان بطل الرواية هو شابًا فاترًا، ابنًا لدوق، وقد ترك انجلترا مسرعًا إلى القدس ليخترق «اللغز الآسيوى». ولكن كلاً من البطل والمؤلف سرعان ما نسى كل شىء عن ذلك وانغمس فى السياسات المتخبطة فى الشرق الأوسط، والسؤال العام عن كيفية سيطرة انجلترا على الطريق إلى الهند. لقد كانت الأزمة السورية ما زالت ساخنة، ولم تكن التيارات المندفعة التى أثارتها دعوة محمد على لوجود سيادة عربية قد

هدأت بهزيمتــه بعد. ومن الغريب أن «ديزرائيلى» كان يـرى أن فرصة انجلترا بين العــرب أفضل من فرصـتها فى قـضية القـومية اليـهودية. وبشكل شبه تهكمى وببعد نظر غالبًا ما كان رائعًا فقد كان «ديزرائيلى» يتصور الاحتمالات.

وعلى لسان «فـخر الدين» أميـر لبنان وهو سورى ماكـر وطموح، وديانته الوحـيدة هى أى ديانة «تمنحنى السلطة» فـإنه يقول: «دع ملكة الإنجليــز تجمع أسطولاً.. وتحـول مـقر إمـبراطـوريتهـا من لندن إلى دلهى.. وفى نفس الوقت سوف أرتب الأمر مع مـحمد على. سوف يحصل هو على بغـداد وميزوبوتامـيا.. وسوف أتولى أنا أمـر سوريا وآسيا الصغرى.. سوف نعتـرف بإمبراطورة الهند كعاهل لنا، وسوف نؤمن لهـا السـاحل الشـرقى. وإذا أرادت فـيمكنـها الحـصول على الإسكندرية مـثلمـا لديهـا مالطـة الآن. هذا الأمر يمكن تـرتيبـه، إن ملكتك صغيرة....». وبالفعل قامت الملكة بذلك، وبعد ثلاثين عامًا أضــاف مؤلف «تانكــرد» رسمـيًا لـقب «إمبـراطورية الهند» للألقــاب الأخرى للملكة.

تشتمل رواية «تانكرد» على تلميحات أخرى مدهشة عن المستقبل. ففيها شخصيتان ساخرتان تناقشان سياسات العالم:

يقول باريزى: لن يستريح بالمرستون قبل أن يحصل على أورشليم! ويرد القنصل باسكوا لايجو: يجب أن يكون للإنجليز أسواق.

باريزى: «عـدل جـداً.. إننى أفكر شـخـصيّـا أن أعـمل بمجـال الأقطان».

بالطبع فإن «ديزرائيلى» كان يمزح ، أليس كذلك، وأيضًا يخبر أحد يهود أورشليم «تانكرد» قائلاً:

«لن يفعل الإنجليز ما فعله الأتراك مرة أخرى للاشىء. إنهم سوف يأخذون هذه المدينة، وسوف يحتفظون بها».

ربما لم يأخذ الشعب الإنجليزى رواية «تانكرد» على محمل الجدية، ولكن التاريخ فعل ذلك.

***

الفصل الخامس

ادخلوا يا يهود

لو لم أكن لنفسي، فمن يكون لها؟

حتى الآن لم يقم شعب إسرائيل بأى دور فعّال فى عملية إعادة فتح الطريق التدريجى إلى فلسطين. فى أول عودة لهم من النفى، حينما كانت بلاد فارس هى القوة التى أعادتهم، كان اليهود على استعداد للرجوع بمجرد أن أعطى الملك «قورش - Cyrus» كلمته، وقد عاد اليهود من بابل فى حشد من أربعين ألف يهودى مصطحبين معهم أوانيهم وأوعيتهم الفضية، وإبلهم وجيادهم وحميرهم. ولكن فى ذلك الوقت كان اليهود مجتمعين، واستمر ابتعادهم عن جبل صهيون لمدة خمسين عامًا فقط. أما هذه الفترة فالاغتراب اليهودى الثانى استمر لمدة ١٨٠٠ عام، وأصبح الشعب اليهودى مشتتًا فى كل مكان بالعالم، يبذلون مجهودًا مملاً ومفرطًا فقط من أجل البقاء على قيد الحياة، وألا يتم استيعابهم أو يفقدوا هويتهم. لقد نجحوا فى ذلك، وكانوا الشعب الوحيد فى تاريخ البشرية الذى حافظ على هويته بدون وطن قومى، ولكن الثمن كان مقيتًا. لقد نجحوا فى البقاء فقط عن طريق الانغلاق على أنفسهم ووضع أنفسهم فى قوقعة صلبة من المعتقدات الدينية، وقد ركزوا كل فكرهم فى الشىء الوحيد الذى استطاعوا إحضاره من بلدهم، وهو التراث أو القانون (الشرع اليهودى)، أو بمعنى آخر التوراة والتلمود. كل الناس يمكنهم أن

يحرثوا الأرض ويزرعـوا ويبنوا ويحاربوا، ولكن مثل هذه الأشـياء لا يستطيع أن يـفعلها اليـهود حيث إنهم لـيس لديهم أرض. فأى أرض يزرعونهـا ويجنونها ويبنون عليهـا ويحاربون من أجلها؟ حينمـا انهار المعـبد، فطبـقًا للأسطورة، دخلت شظيـة من حجـارته فى قلب كل يهودى، وهذا الحجر فى قلوبهم كان وطنهم الوحيد.

ولكن مع تغيـر الزمن لم يعد ذلك كافـيًا. لقد قـال «مازينى» رائد الحركة القـومية فى القرن التاسع عـشر: بدون وطن لا يوجد لديكم اسم أو صوت أو حقوق أو قبول وسط الشعوب الأخرى. ستكونون حثالة البشرية ومنبوذين بين الشعوب، كبنى إسماعيل. لقد كان يخاطب الإيطاليين وليس اليهود، ولكن صيحـته كانت تعبر عن روح العصر، وبدأ اليهـود يسمعونها أيضًا.

وحتى عـام ١٨٠٠م، مرت القـرون وظل اليهود فى حـالة انتظار سلبى لحدوث مـعجزة خارقـة للطبيعـة فى شأنهم. لقد ظلت عـبارة «الصلاة الـعام القادم فى أورشـليم» تقال عـام بعد عام مـنذ عام ٧٠ ميـلادية، مثل قطرات الماء التى تـسقط على الحجـر. ولكن الآن بدأ بزوغ فكرة: أنه بأيديهم هم فقط ويعملهم الجاد سوف يمكن لإسرائيل أن تتخـطى ذلك الشتات. لـقد كتب المؤرخ «هـنيرتش جراتيـز» سنة ١٨٦٤م: «يجب أن يكون الشـعب اليـهودى هو مـسـيح أنفسـهم». وكانت هناك قوى كثيرة تعـمل فى القرن التاسع عشر من أجل إحداث هذه الفكرة الثورية.

يكاد يكون من المستحيل المحاولة للوصول إلى تقارير أو أبحاث حول عملية البعث الحديث للشعب اليهودى دون اليأس من التورط فى متاهات يهودية داخلية وسياسات خارجية أوروبية. لقد نقلت أوروبا اليهود إلى فترة «التنوير» والتحرير، وذلك على أثر اليقظة الأوروبية بسبب الثورة الفرنسية، ولكنها نقلتهم أيضًا إلى فترة من الصراع الدينى والاجتماعى الذى مزق الديانة اليهودية التى طالما تشبثوا بها خلال قرون الشتات، وأدى ذلك الصراع إلى أنهم أصبحوا تائهين للأبد فى المعركة الجديدة من أجل الحرية القومية وأخيرًا من أجل الدولة. لقد كانت خلفية الأحداث هى تاريخ أوروبا تحت حكم نابوليون، ثم رد الفعل على اختفاء نابوليون، والمحاولة العابثة لـ «التحالف المقدس» من أجل الحد من الحكم الفردى وثورتى ١٨٣٠ و١٨٤٨م، وظهرت الحركات القومية الليبرالية والاشتراكية وحركة «بسمارك» والحركة الألمانية الشاملة (Pan-Germanism) واضطربت روسيا فى المراحل الأخيرة للشيخوخة القيصرية. كل هذه القوى أثرت فى اليهود، مثل التشنجات والتقلصات اللتين تحدثهما آلام المخاض، وأدت بهم إلى عملية الولادة المتعثرة كأمة.

لقد بدأت العملية بحركة «التنوير» التى بدأها «موسى منديلسون – Moses Mendelssohn» فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر، والتى كسرت قوقعة الانغلاق الدينى اليهودى، وفتحت الطريق أمام اليهود للتعرف

على الثقافة الغربية والمشاركة فى الأحداث الغربية. لقد انكسر حكم التلمود والحاخامات، وتم فتح النوافذ اليهودية التى أغلقت فى جميع أنحاء أوروبا. وبدأ اليهود يقرأون لـ «ڤولتير» و«روسو» و«جوته» و«كانت». لقد تلت حركة الإصلاح عملية الإسقاط اليهودى للطقوس الدينية القديمة ومحاولة تكييف اليهودية مع العالم الحديث. لقد أصبح «التحرر المدنى» هو الهدف. لقد أقرت «الجمعية التشريعية الدستورية الفرنسية» فى عام ١٧٩١م حق اليهود كمواطنين بفرنسا، وأكده نابوليون فى كل مكان تحت سيادته. ولكن الرجعية ألغت ذلك الحق، وكان على اليهود فيما بعد الحرب من أجل ذلك الحق فى كل دولة على حدة. لقد نالوا «التحرير المدنى» فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر، ولو كان الأمر ناجحًا لانتهت اليهودية عند ذلك الحد. ولكنه لم يكن كذلك، وأثناء محاولة اليهود لاكتشاف عدم نجاح الأمر اكتشفوا القومية. لقد أصبحوا يدركون أن اليهودية تحتضر؛ وذلك بسبب التحجر فى قشرة جافة من الأسلوب الحبرى المبهم والمعقد من ناحية، وبسبب التحلل فى الهواء الطلق «للتنوير» الغربى من ناحية أخرى. وإذا كان مقدراً لليهودية البقاء، فإنها فى حاجة ماسة لتربة جديدة. لقد وفرت القومية هذه التربة، ومنذ ذلك الحين فقد أصبح التحرك تجاه فلسطين يتم ببطء وتردد وعدم رضا، وليس بدافع الحماس بل بدافع الضرورة. ولم تكن أبداً حركة واحدة تسير فى خط مستقيم، بل كانت عبارة عن شظيات متناثرة لنزعات وجماعات

متناقضة، مثل الإصلاح ضد التقليد، القومية ضد الذوبان، الاثنان ضد الصهيونية، وعقب كل ذلك نباح الكلاب ضد السامية(*).

وكانت الحركة السياسية المعادية للسامية وليدة القرن التاسع عشر. لقد نهضت مثل العنقاء السوداء من رماد الفتح النابوليونى، وكانت ألمانيا، ولا عجب فى ذلك، هى مسرح الأحداث. وظل صوت «Hep! Hep!» يدوى عبر شوارع «هايدلبيرج» و«فرانكفورت» عام ١٨١٩م تصاحبه عمليات الشغب، واستمر نهب البيوت اليهودية زمن حادثة دمشق وقوانين مايو ومذابح روسيا، واستمرت أيضًا خلال قضية «دريفوس» حتى محرقة هتلر. وكان ذلك الصوت دائمًا يؤدى إلى دفع اليهود، بعضهم إلى القومية وفلسطين، والبعض الآخر إلى حركات التهرب من الواقع والذوبان فى الشعوب الأخرى.

وهذا الضغط هو ما أثبت أن ذلك التنوير والتحرير مجرد خداع. وبالرغم من روح الحماس التى غلبت على القرن التاسع عشر والإيمان الشديد بالتقدمية، إلا أن الحركة المعادية للسامية لم تختف. واعتقد المتدينون الأرثوذكس من قبل، أن عليهم فقط أن ينتظروا وقتًا كافيًا وسوف يظهر المسيح ويعيدهم بشكل إعجازى إلى جبل صهيون، واعتقد أنصار الذوبان أن عليهم فقط أن ينتظروا وقتًا كافيًا، ولو أنهم

(*) هذه ترجمة حرفية لما كتبته المؤلفة بالإنجليزية:

The baying of the hound of anti - semitism.

ظلوا هادئين ومهذبين ولا يزعجون أحداً، فـإن الحركة المعادية للسامية ستختـتفى فى سديم الحركة التـقدمية وحب الإنسان لأخـيه الإنسان. ولكن هذا لم يحدث إلى حد ما. فالحركـة المعادية للسامية لم تتلاش أمام العصا السحرية للماركسية أو أمام الاشتراكية العالمية.

وجـدً اليهـود سعـيًـا للبحث عن حـل فى العديد من الاتجـاهات المختلفـة، كافحـوا من أجل أن يكونوا مواطنين عـاديين فى أى دولة يعيشون فيها وأن يظلوا يهوداً فى نفس الوقت. وحاولوا إيجاد مخرج لإخـوانهم المضطهـدين فى الشـرق يحفظ لـهم فى نفس الوقت ذلك القدر من الحـرية والحيـاة الكريمة التى وجـدوها فى الغرب(*). لقد أحدث ذلك الشد والجذب شقاقًا حزبيًا مأساويًا بين اليهود، لم يحدث منذ الأيام الأخيرة للمعبد حينمـا ظلت الأحزاب الدينية تحارب بعضها البعض، بينما سـقطت المدينة على مرمى سمعهم. تعـمقت الخلافات وتكاثرت الانشـقـاقات وتزايدت العـداءات، مما أعـاق الجـهود نحـو

(*) لم يحـدث فى تاريخ الشرق الأوسط ولا تاريخ المسلمـين اضطهاد لليـهود، كـما حدث فى أوروبا، فـقد طردوا من انجلتـرا، ومن إسبـانيا، وتكررت الاعـتداءات عليهم فى أوروبا كلها من روسيا حتى انجلترا، وثار عليهم الشعب الروسى وأعمل فيهم الذبـح فى نهاية القرن التاسع عـشر، كذلك فعل هتلر، وقد ذكـرت الكاتبة الكثيـر من ذلك فى كتـابها، ولم تذكـر حادثة قـتل جمـاعى لليهـود فى الشرق الأوسط، إلا ما كان من الرومان قبل الإسلام، وإلا ما حدث فى فلسطين رداً على الاعتداءات الصـهيونية فى القرن العـشرين، والتى كان ضحايا الفلسطينين فـيها، دائمًا منذ بداية الغزو الصهيونى وحتى اليوم، أضعاف ضحايا اليهود.

مشروع الوطنيـة مثلما تعوق الوطن اليهـودى الآن. ولكن ما زال نباح الكلب(*) يحافظ على بـقاء الحركـة المعادية للسامـية. وحينمـا سمع «هيـرتزل» ذلك النبـاح فى فـرنسا المستنيـرة عـاد إلى بيتـه ليكتب «الدولة اليهودية» ويناشد الكونجرس الصهيونى أن يضع «مركب الدولة اليهودية فى طريقه». ولكن «موسيه هيس» كان قد سمـعه فى دمشق قبل ذلك بخمسين عامًا.

لقد كـان «هيس» يهوديًا متحـررًا مثل «هيرتزل» الذى جـاء بعده. وكان «هـيس» أحد الرواد القـدامى للاشتـراكيـة الألمانية الذين كـانوا يعتبرون أنفسهم اشتراكـيين أولاً ثم ألمانيين ثانيًا ويهودًا أخيرًا، هذا إذا كانوا يعتبرون أنفسهم يهودًا أصلاً. وفجأة صدمته حادثة دمشق كما لو كانت لكـمة غيـر متـوقعة. لقـد أظهرت الحـادثة أن اليهـود ما زالوا يسجنون ويعذبون، وأنهـم مجتمع كامل يسلب وينتـهك بسبب ادعاء مدسوس مـن خرافات القرون الوسطى، وألقت الحـادثة بظلال سوداء على كل المجتمع اليهودى من نيويورك إلى أودسا. وكتب «هيس» بعد ذلك قـائلاً: «ثم لاح لى لأول مرة وسط أنشـطتى الاشتـراكيـة أننى أنتمى إلى شـعبى المنبوذين والمحـتقرين والمشتـتين . . . وأننى أريد أن

(*) حتى اليوم، أى من ينـتقد سياسـة الصهاينة، أو سياسـة إسرائيل، هو كلب ينبح. ويمكن للقارئ أن يطالع «المسـألة اليهودية» للروائى الروسى العالمى ديستـوفيسكى، أو«اليهودى العالمى» هنرى فورد الأمريكى (مـؤسس شركة فورد لصناعة السيارات) يقرأ عنهما أنه لم يشتك شعب فى العالم مثل اليهود.

أعبر عن مــشاعرى الوطنية اليهــودية بصرخة أسى». ولكن الأسى لم يكفــه، فقد كــان يريد حلاً. وكــان هناك حل وحيــد. ويتلخص فى عبــارة «مازينى» التى لم تكن قــد كُتبت بعــد آنذاك، ولكنها لا مــفر منها: «بدون وطن فأنتم حــثالة البشرية»، إن التحريــر مجرد سراب. وبصرف النظر عن مــدى قسوة الحــقيقة فــعلينا أن نواجههــا. فى عام ١٨٦٢م نشر «هيس» كتابه «روما والقدس» والذى كان له عنوان فرعى هو «أحدث قــضية قومــية». وكتب فيــه: «لقد حانت الساعــة لإعادة الاستيطان على ضفاف الأردن. فــقد كان وجود وطن أمراً ضرورياً». وكتب «هيس» أيضــًا: «بواسطة اليهود يجب بالضرورة الحــصول على استقلال قــومى قبل التقدم السياسى والاجــتماعى، وليس بواسطة أى شعب آخر، فــالشعوب الأخرى، ولو كانت مقــهورة فهى على الأقل تعيش على أراضيهــا. ووجود أرض قومية مشتــركة هو شرط أساسى للاستقلال القومى اليهودى...».

ولكن «هيس» كان يعرف ما لم يخطر على بال أى مــن المتحمسين لـ «شافتــسبرى»، وهو أن شعبــه أبعد ما يكون عن كونهم مســتعدين لذلك. ما زالت الجــماهير اليــهودية مــسجونة خلف مــصاريع أبواب الأحبار التى يجب فتحها بالقــوة من الداخل. وكان «اليهود التقدميون يختــبئــون خلف آمال تافــهة ســرعان ما ســتتــبعــثر بمجرد لكــمة من الخلف»، وكان من الواضح أن «المشكلة الرئيــسية لدى الحركة القــومية

اليـهودية هى . . . كـيفـية إيقـاظ المشاعـر الوطنية فى قلوب يهـودنا التقدمـيين؟ وكيفية تحـرير الجماهير اليهـودية بواسطة هذه الوطنية من تلك الشكليـة الكئيبـة والمحبطة؟». وفقط عنـدما يتحـقق ذلك، فإن مشروع «استعادة الدولة اليهودية سوف يجدنا مستعدين له».

استمر «هيس» من هناك فى رسم خـطط لاحتلال فلسطين. وكان يأمل فى مسـاعدة القوى العالمـية فى شراء الأرض المقدسـة من الباب العالى المفلس، وكان يـفكر فى فرنسا بالتحديد لتكـون القوة الوسيطة (حيـث كان «هيس» يعـيش آنذاك فى فرنسـا، وكان لويس نابولـيون بالفعل يسعى وراء نفوذ له فى سوريا). وكان «هيس» يتنبأ بمسـتعمرات يهودية «تمتد من مصر إلى القدس ومن الأردن إلى المتوسط».

وبينما كان هيس يعمل على تنفـيذ حله، كان يهودى آخر من نوع مخـتلف عنه قد وصل إلى نـفس النقطة بشكل مسـتقل، وهو الحـبر هيرش كـاليشـر من ثورن ببروسـيا، وهو باحث يـحترمـه الناس من المدرسة القديمة، وقد أعلن مبـدأ مساعدة الذات من منبره التلمودى. وكتب فى عام ١٨٦٠م «لا يجب أن يعـتقـد أحد بأن استعادة إسرائيل والمسيح ستحدث بمعـجزة سماوية وأن المسيح سيعيد الإسـرائيليين من التيه إلى إرثهم. إن الاسـتعادة سـتتم بشـكل طبيـعى من خلال رغـبة اليهـود فى الاستقرار فى فلسطين ورغبة الأمم فى مساعدتهم».

وفى نفس العام، جـمع مؤتمر من الأحبار وقادة المجـتمع فى ثورن

للحث على تنشيط استعادة فلسطين. وبالرغم من التقدم المحسوس القليل، فقد كان سعى كاليشر لجبل صهيون بمثابة الخميرة فى العجين. وشاركه أحبار آخرون نفس الأسلوب تجاه العودة، ومن خلال تلاميذه وعلاقاته انتشرت أفكاره. لقد علمهم أن جهد اليهود على أرض فلسطين هو الوحيد القادر على استعادتها. وأراد أن يحمى جنود يهود المستوطنين اليهود. ولم يكن يثق بقدر كبير فى كرم القوى الغربية، وفضل مساعدة بنى جنسه.

وكان يرجو المساعدة من أبناء جنسه، فكتب رسائل إلى «مونتيفيور» وعائلة «روت شيلد» يحثهم على تمويل المجتمعات الاستعمارية اليهودية، وشراء الأراضى، ونقل المهاجرين وترسيخ اليهود الذين يعرفون الزراعة على قطع أرض حرة، وتعيين معلمين لتدريب الآخرين، وأخذ قروض حتى تصبح المستوطنات قائمة بذاتها ويمكنها الاعتماد على نفسها، وإنشاء نظام شرطة وحراسة عسكرية ومعهد تدريبى زراعى.

لقد تمت البداية على هذا النحو بواسطة «التحالف الإسرائيلى العالمى» الذى تأسس فى «باريس» عام ١٨٦٠م. وكان ذلك التحالف الأول من نوعه، تلته بعد ذلك مؤسسات شبيهة فى أوروبا تعمل عل حماية ورفاهية اليهود. وكانت فلسفة التآلف بابوية وليست وطنية على النحو الذى طالب به «هيس» وبعده «هيرتزل»، فالوطنية كانت فكرة جديدة

آنذاك، أو على الأقل كـانت فكرة ميتة منذ زمن ومن الصعب إحياؤها، وسوف تأخذ وقتًا طويلاً للإمساك بها. أما فكرة الخيرية والإنسانية، أو بتعبير أدق مسئولية المجتمع عن المحتاجين، فكانت دائمًا تقليدًا مستمرًا لإسرائيل وقديمًا جدًا مثل القبائل. بدأ التحالف يعمل الآن فى اتجاه فلسطين. قام «مونتيفيور» الذى كان يعمل وحده بثلاث رحلات إلى فلسطين قبل إنشاء طرق السكة الحديد والبواخر، وكان مجموع الرحلات التى قام بها قبل وفاته سبع رحلات، آخرها فى سن التسعين. كان «مونتيفيور»، أو «أمير إسرائيل»، دائمًا ما يتحرك فى أى وقت وفى أى مكان تحدث فيه محنة أو اضطهاد لمجتمع يهودى. فقد سافر فى ظروف كهذه إلى القسطنطينية فى سن التاسعة والسبعين، وإلى المغرب وإسبانيا فى سن الثمانين، وإلى موسكو فى سن الثامنة والثمانين. ولم ترهبه المسافة التى سيقطعها أو الكارثة التى سيتعامل معها أو الحشود المشاغبة التى سيقابلها، لم يرهبه الجليد أو الصحراء. وبصرف النظر عن عادات «مونتيفيور» المهيبة وشخصيته الوقورة، فبمفرده لم يستطع تحقيق إلا القليل من الأثر الدائم للحد من تلك الحوادث مثل حادثة دمشق، وأمثلة أخرى تكررت فى كل مكان وأيقظت الضمير الجماعى لدى اليهود المتحررين فى الغرب. ولكن هدف التحالف كان محددًا بالنسبة لفلسطين، وهو تقديم مأوى آمن لليهود المضطهدين.

أنشأ التحالف مدرسة تدريبية زراعية بالقرب من يافا سنة ١٨٧٠م.

وفى نفس الوقت بدأ تدفق بسيط من المستوطنين اليهود شيئًا فشيئًا من روسيا، والتى نشـأت فيها المجتمـعات الاستعمارية تحت تأثيـر كتّاب متأثرين بأفكار كل من «هيس» و«كاليشر». وفى «ڤيينا» كانت الجريدة الناطقة باسم هذه الأصوات الجديدة هى جريدة «ها شاهار – Ha Sha-har» (الفـجر). وقـام رئيس تحـريرها «پيريز سـمـولينكسن» فى سنة ١٨٧٣م بنشر كتاب له بعنوان «الشعب الخالد» والذى كان له أثر عظيم بين يهـود الشـرق. ويسخـر الكتـاب من النظرية المدللة لدى أنصـار الذوبان، وهى أن إسرائيل بقيت فقط كديانة، وأكد أن اليهود هم ناس أحياء. وظلت هذه العبارة فى الكـتاب وهى «كلب حى خير من أسد ميت» منذ ذلك الحين تسـتخدم للتدليل على سعة الهـوة بين القوميين والتمـثيليين. وفى نفس العام كتب مـوسى ليلينبلوم فى صحيـفة «ها شاهار» «إعادة مـيلاد الشعب اليهـودى فى أرض أجداده» وقد رددت أصوات أخرى فى روسيا وبولندا وألمانيا والنمسا وفرنسا وإيطاليا نفس الموضوع فـى كتاباتـها. وبدأت الكتب والمقـالات والصـحائف المكتـوبة بالعبرية تتوالد فى شرق أوروبا فى السبـعينيات. لقد أشبعت هذه الكتابات العاطفة اليـهودية الجدلية، ولكنها كانت مـوجهة أساسًا لاستـعمار فلسطين كأساس للانبعاث الروحى للديانة اليهودية.

لقـد جـعلت هذه الكتـابات الناس يفكرون، ولكنهـا لم تجـعلهم يتحركون. لقد فعل نباح الكلب (الحركة المعادية للسامية) ذلك، ولكنه الآن انقلب إلى صـيحة حـادة ونباح جـماعى مثل ذلك الـنباح الذى

يسبق القتل. وفى ألمانيـا فى أواخر السبعينيات ظهـرت الحركة الألمانية الجدليـة المعادية للسـاميـة بقوة فى سـياسات الأحـزاب والصحـافة، وأشيعت النظريات العلمـية الزائفة التى يسر العقلية الألمـانية الانغماس فيهـا. وأوضح «بسمارك» كيف يمكن استـخدامها لصالح السـياسة. وفى أسبوع عيد الفصح لعام ١٨٨١م فى روسيا، أصبح الدرس محل الممارسـة، وبدأ عهد جديد من الحـركة السياسـية المعادية للسامـية فى شكل سياسة قومية واعيـة تتبناها وتشجعها الدولة. وفى غضون ثلاثة أيام أصبحت روسـيا الغربية من البحر الأسـود حتى البلطيق كتلة من الرماد؛ بسـبب أنقاض البيوت اليـهودية المتهـدمة (على حد استـخدام الكلمات التصورية لـ «الوسيان وولف»). ومن «وارسو» إلى «كييف» إلى «أوديسا» عـبر مائة وستين قـرية صغيـرة، تم شن أعمال همجـية تصل إلى درجة الوحشية - ولم يعـرف مثلها منذ العصور الوسطى - على اليـهود ووصل صـداها إلى العـالم عن طريق التـقارير المروعـة للبعثات الديبلوماسية والصحافيين.

قوانين «نورنبيرج - Nurnberg» كان النموذج الأمـثل الأصلى لها هو قوانين مـايو ١٨٨٢م، والتى صدرت على نحـو متعـمد لتـجعل اليـهود يخســرون ديارهم ومـوارد أرزاقهم، وحطمـت قرى يهـودية بأكملها، ودمرت الاقتصـاد اليهودى المتقلقل أصلاً، وقننت تحت اسم «أوامر مؤقتة» مذبحة مستمرة.

وكـان السـبب وراء هذه الانفـجـارات نفس السـبب المـوجـود لدى «النازية»، وهو استخدام اليهـود فى دورهم التقليدى ككبش فداء لخلق نوع من تحويل الانتـباه عن أزمـة قادمة فى الـطريق، وإزالة الغضب الشـعبى من الطبقة الحاكمة.

ومع مـرور سنتى ١٨٨١ - ١٨٨٢م تعلمت الغـالبيـة العظمى من يهود روسيا ما أخذ يهود غرب أوروبا تقـريبًا مائة عام ليتعلموه، وهو أن التحرير سيكون وهميًا ما لـم توجد وراءه كرامة دولة لتسانده. لقد أسرعوا إلى القـومية، ليس لأنهم لم يحصلوا على التـحرير أو يلزموا أنفسهم بالذوبان، بل لأنهم لم يتعلقوا بوهـم، لم ينتابهم شبح «الولاء المزدوج»، فبعد تلك المذابح والأوامر العليا والعصابات الإجرامية، أى ولاء يمكن أن يكون لديهم تجاه روسيا؟

وكما أسفرت «حادثة دمشق» عن «هيس»، أسفرت مذابح ١٨٨١م عن كـتيب بعنوان «التـحـرير الذاتى» لطبيـب أوديسا الدكـتور «ليـو پنسكر». كان ينادى بنـفس كلمات الربای «هيلل» آخر مـعلم يهودى عظيم قبل سـقوط المعبد. كـان يقول: «إن لم أكن لنفسـى فمن يكون لها؟». وكان «پنسكـر» يصرخ أن اليهـود يجب أن يحرروا أنفـسهم، «علينا أن نعيد بنـاء أنفسنا كأمة على قيـد الحياة». لطالما افتقـد اليهود الرغبة فى أن يصبـحوا أمة مثل افتقار الرجل المـريض للشهية، ولكن يجب خلق هذه الرغبة.

بدون هذه الرغبة سيظل اليهود شبح شعب، وشبحًا لأمة ميتة يمشى حيًا بين الأحياء. اليهودى هو الأجنبى الأبدى، فلكل الأجانب الآخرين بلد فى مكان. ولكن اليهود فقط ليس لديهم بلد، وبدونها سيظلون أجانب فى كل مكان. «يا له من دور وضيع يقوم به شعب كانت له أمجاد يومًا ما!» لا فائدة إذن من الشكوى من الحركة المعادية للسامية، فإنها ستستمر طالما سيظل اليهودى شبحًا وغريبًا. «هناك شىء غير طبيعى فى وجود شعب بلا أرض مثل وجود رجل بلا ظل».

لقد حث «پنسكر» الجمعيات اليهودية الموجودة لعمل هيئة تشريعية (كونجرس) قومية وشركة مالية لشراء الأراضى وتنظيم هجرة اليهود إلى فلسطين وإعادة الاستيطان. وكان يؤمن بأن رواد الحركة يجب أن يكونوا من يهود الغرب الذين يملكون القوة والمال والمعرفة بأمور الحياة، رغم أنه لم يتوقع منهم أن يشاركوا فى الهجرة إلى فلسطين؛ لأنهم مرتاحون فى الأماكن التى يعيشون فيها وسيفضلون البقاء فيها. سوف يأتى تأييد جماهيرى للمشروع من روسيا وپولندا، ولكن لن يأتى رواد له من هناك، فإن البيئة لم تتمكن من إنتاج مثل هؤلاء الرواد.

إن الرواد الذين كانوا يتمناهم «پنسكر» لم يكونوا مستعدين بعد، ولكن الشخصيات الأدنى منهم كانوا مؤثرين للغاية، وبينهم بدأت

مجهوداته ترى النور. لقد رتب لمؤتمر قريب من «كراكاو» بپولندا، وتم انعقاده يوم عيد ميلاد «مونتيفيور» المائة سنة ١٨٨٤م. وفشل المؤتمر فى إحداث هيئـة تشريعية قـومية يهودية، ولكن تم إنشـاء ما هو أقل من ذلك، وهو «جمعية للاستـعمار فى فلسطين» والتى تم تعيين «پنسكر» رئيسًا لها. وعـرفت الجمعية فيما بعـد فى مقرها الرئيسى باسم «لجنة أوديسـا» وبدأت عمـلها الفـعلى فى جـمع المسـتعـدين للعـودة إلى فلسطين. لقد كـان العاملون بالجمـعية يطلقـون على أنفسهم «أحـباء صهيون». وكانت اجتمـاعاتهم التى كانت تطاردها الشرطة تعقد على ضوء الشموع فى القـرى الصغيرة الموجودة عبـر الحدود. وكان الطلبة يخوضـون الطرقات الموحلة لتوزيع المنشـورات. وأخيراً بدأت عـملية الهجرة الجماعـية. وقد ألقت مهمة بداية إحياء الأمـة التى ظلت ميتة طويلاً، وأرض فلسطين التى كانت نصف ميتة، على عاتق مجموعات قليلة من المستوطنين الذين لم ينظفـوا حقلاً أو يحرثوا أخدودًا أبدًا فى حياتهم.

ولم تكن هذه حـركة قـومـية بعـد. وكـان «هيرتزل» مـا زال فى العشرينيات من عمـره، شابًا أنيقًا من صالونات «ڤيينا»، وكان يكتب كـتابات رشـيقـة وتراوده فكرة المسـرح. ولم يقـرأ أبدًا لـ «پنسكر»، واليهـود المتحررون الآخـرون الذين قرأوا له، استـاءوا من فكرة الأمة والوطن، بل قاومـوها. ويقول د. «أدولف چيلينيك» العالم اليـهودى

المشهور بـ «ڤيينا» لـ «پنسكر» حينما زاره الأخير وعرض عليه الفكرة: «هذه مزحة ... أنت مصاب بالحمى لا بد أنك تحتاج إلى دواء». لقد دون «چيلينيك» تلك المحادثة التى دارت بينهما.

يرد «پنسكر»: «إننى لا أدرى أى حل آخر».

ويبرر «چيلـينيك» قائلاً: «وماذا عن التـقدم، الحـضارة؟! لن تظل روسيا رجعية كما هى للأبد!».

هذا ما أرادوا أن يؤمنوا به، وهو أن المعاداة للساميـة مجرد طور وستنهيه التقـدمية فى النهاية، وسوف تـرعى ضحاياه فى نفس الـوقت. إذ لا توجد ضرورة لحل جذرى كما يعتقدون.

وجاءت المساعدة من الغرب، ولكن لم تأت قيادة. سيمول دوقات اليهـود أى شىء فى المشروع عـدا أى خطوة سيـاسيـة. وأراد البارون «هيرش» أن يـوجّه هجرة جـماعـية إلى الأرچنتـين. وساعـد البارون «إدموند دى روت شيلد»، والذى كان تقريبًا وحـيدًا بين المنادين بثقافة غرب أوروپا، المستوطنات حديثة العهد فى فلسطين. وما كان يؤلمه أنه كان يعتبر شاذًا بينهم إن لم يكن شـيئًا أسوأ من ذلك. لم يلق مشروع إحياء فلسطين فى ذلك الوقت حماسًا لدى المجـتمع اليهودى المتحرر. لقد كتب الرئيس «وايزمـان» فيما بعد فى سيـرته الذاتية «بوجود رجل واحـد، فإن ذلـك الأمر يعـتـبـر مجـرد عـاطفـة، وذلك الرجل هو «إدموند»، بارون «پاريس». ولو أن هناك دستة فـقط من نوعية وقدرة

هذا الرجل لغيروا تاريخ فلسطين ولقضوا تمامًا على عواتق اليهود المناهضين للصهيونية، والمترددين والمعارضين فى العالم غير اليهودى، ولكننا لم يكن لدينا مثل هؤلاء الرجال».

والآن علينا أن نتوقف عند الثمانينيات؛ لأن الانطلاق الحقيقى للحركة الصهيونية ينتمى إلى عصر آخر، وفى نفس الوقت، فقد كانت انجلترا تتقدم ببطء نحو دورها المستقبلى كقوة وسيطة. لقد كان التحرير عملية عكسية؛ حيث إنه عرف اليهود بحضارة الغرب، وبدأ يعرف الغرب بالممثلين الجدد «للشعب الله القديم». فكانت رواية «ليسنج» مكتوبة على طراز صديقه «ميندلسون». وكانت ألحان عبرية لـ «بيرون» تركز على موضوع الافتقار المشئوم لوطن قومى، وكتبت قبل مجىء «هيس» بحوالى نصف قرن، وها هى أبيات منها:

«الحمامة البرية لها عشها، والثعلب له كهفه،

والبشر لهم بلادهم، وليس لإسرائيل إلا القبر!».

إن بيرون الذى مات أثناء الحرب من أجل الاستقلال اليونانى كان بطل الجيل الذى تمرد على طاغية «التحالف المقدس». لقد انتزع روح القومية من الهواء وحولها إلى أبيات شعرية. لقد كان «مازينى» يقرأ ثلاثة كتب وهو فى السجن، هم «تاكتيس» و«الكتاب المقدس» و«بيرون». لم يدق فى أى مكان آخر جرس الحرية بمثل ذلك الصوت العالى والواضح مثلما دق فى «تدمير سيناشريب» المعروفة بـ «ألحان

عبرية» فهى لم تكــن مجرد ترجمة شعرية للحظات بطــولية من العهد القديم. يبدو أن «بيــرون» تشبع بروح الديانــة اليهودية التى مـا زالت على قيد الحياة، والتى كان يعبر عنهـا «ديزرائيلى» بفخر وعلى غير اليهود: «عش أنت على عقيدتك ولكنتى سأمــوت على عقيدتى». ونفس الروح توجد فى سطور «توم مور - Tom Moore» «يدق صوت الجـرس العالى فــوق بحر مصر المظلم! لقد انتصر يهوه! لقد أصبح شعبه حرًا!».

وقد وضع سكوت هذه الروح فى شــخصيتــه الروائية «ربيكا» التى هربت مع «إيفــانهــو» رغم أن «روينا» هى التــى تزوجت الرجل فى النهــاية، إن «ربيكــا» صــارت الشــعب التــواق الذى تصــوره روايات «ويڤرلى» عندما قفزت إلى المتــراس وتحدت النذل «بويس جيلرت» أن يخطو خطوة أخــرى وحينما تنعى «ربيكا» خــضوع واســتكانة شعبــها لقدره، وتأسف لأن «صــوت البوق لم يعــد يوقظ يهوذا» فــإنها بذلك تعبــر عن روح القوميــة التى شهدها جــيل «سكوت» و«بيرون» والتى ستصل إلى اليهود العصريين فى غضون عدة عقود لاحقة.

حينما وصلت هذه الروح إلى اليهود لاحقًا، وجدت لها صدى فى انجلترا الڤيكتورية وفى كل القارة. ففى فرنسا تحولت كتابات «دوماس فيس» والذى كان أشــهر كاتب مسرحى فى عصــره فى مواضيع الحب والسل الذى يصيب النســاء المشبوهات، كما فى «غــادة الكاميليا» إلى القومية اليهودية كمــا فى «امرأة كلود». ويقول بطل هذه المسرحية التى

كتبت سنة ١٨٧٣م: «إن أرضنا وطن الأسلاف أصبحت ضرورية لنا مرة أخرى». لقد شعر «سكوت» أن من واجبه أن يشرح فى طبعات لاحقة للرواية أنه كان مضطراً لجعل «إيفانهو» يتزوج «روينا» وليست «ريبكا»، وذلك من أجل أن يكون العمل قابلاً للتصديق تاريخياً. وفى انجلترا وبعد عام التفتت «چورچ إيليوت» إلى أحدث قضية قومية كما كان يسميها «هيس»، وكتبت رواية «دانيال ديروندا» التى اتسمت بالموضوع ذى الطابع الخاص والذى يعبر عن انقسام فى الشخصية فى عام ١٨٧٦م. لم يكتشف بطل الرواية جذوره اليهودية إلا بعد أن أصبح فجأة نصيراً متحمساً للحركة القومية. ويقول البطل: «الفكرة التى تنتابنى هى فكرة استعادة الوجود السياسى لشعبى، وجعلهم أمة مرة أخرى، ومنحهم مركزاً قومياً». ومثل كل روايات المتحمسين غير اليهود لقضية العودة، فإن «دانيال» لم يتردد لحظة فى المشاكل التى كانت تزعج اليهود الفعليين، مثل قضية الذوبان، والحركة المعادية للسامية، ومسألة اليهودية كدين أم جنسية؟ ومبدأ الكلب الحى أم الأسد الميت؟ إنهم لم يفكروا أبداً فى قضية إحياء الرغبة فى الاستقلال السياسى أو فى اقتصاديات مشروع العودة، والعملية المادية للرجوع إلى فلسطين، واستعادة الأرض، وخلق مجال للعيش وكسب الرزق هناك.

لقد تجاهلوا كل ذلك واندفعوا بخطى واسعة إلى فلسطين، المكان

الذى سوف تبزغ منه إسـرائيل الجديدة فى كامل نضجـها مثل «أثينا».
وفى الرواية ينصح «موردخاى» الذى كان ملهم «دانيال» قائلاً: «قوموا بإحيـاء المحور الرئيسى، وتطلعـوا إلى أرض وسياسة ... إلى حـياة قومية لها صوتها بين الشعوب ... استردوا الأرض وأسسوا قاعدة لها ... سوف يستفيد العالم كما تستفيد إسرائيل ... من وجود يهودية متـوازنة بين الشرق والغـرب كمـيثاق صـلح بين الجانبـين». وكانت «چورچ إيليوت» مـثل «شافتسبـرى» وأتباعه تسيطر عليـها الفكرة التى تبدو تهكمـية اليوم، وهى أن الدولة الجديدة سوف تكـون عامل تهدئة فى الشـرق الأوسط، كما يـقول «موردخـاى» فى الرواية إنهـا سوف تكون: «أرض مـحايدة بالنسـبة لعـداوات الشـرق مثل «بلچـيكا» فى الغرب». فى الحقيقـة يجب أن نأخذ فى الاعتبار الدين الذى فى عنق «چورچ إيليوت» لـ «شافتسبرى» رغم أنها لم تعترف بذلك. لقد كانت فى سنواتها المبكـرة إنجيلية تبـشيرية مـتحمسـة، ولـم تغب عن نظرها القضية الرئيسية لدى الرواد الإنجيليين. لقد جاءها الإلهام المباشر لكتابة هـذه الروايـة من زوجها «چورچ لويـس» الذى كان صـديقًا حميـمًا لـ «موسى هيس» أثناء إقامته فى باريس.

وعلى العكس من شخصية «ربيكا» فقد فشل «دانيال ديروندا». إنه مخلوق نبيل وخير إلى حد بعيد جـداً بالنسبة للطبائع البشرية المعتادة. وكان قرّاء «چورچ إيليوت» أكثر اهتمامًا بمغامرات «جويندولين» الرائع

المتعلقة بـالزواج والذى كان يرفضه «دانيال» من أجـل مصلحة الأرض المقدسة.

وبصفـة عامة فـإن الكتاب لم يؤثر فى النقـاد. فقد اعـتبر السـير «ليزلى سيتفـن» هدف «دانيال» فى استعادة الاستقلال السـياسى لشعبه هدفًا «خـياليًا»، وأن اختـيار المؤلفة للمـوضوع قد صدمـه؛ حيث إنه «يظهر شكلاً مختلفًا من روح الـدعابة». ولو أن الكتاب قد فشل من الناحيـة الأدبية، فإنه على الرغم مـن ذلك كان له أثر كبـير بالغ على الحركة القومـية اليهودية. ربما بالغ «لوسيان وولف» فى تـقديره حينما قال إن الأثر الذى أعطاه الكتـاب للحركة كـان «أقوى حافـز مرت به الحركة منذ ظـهور ساباتاى زيفى»، وعندما تبنت الشـاعرة الأمريكيـة إمالازاروس قضيـة القومية اليهودية سنة ١٨٨٣م، أشـارت إليها على أنهـا الفكرة التى بلورتهـا «چورچ إيليوت»، كـما لو كـانت «چورچ إيليوت» هى التى أنشأت فكرة القومية اليهودية.

بالرغم من أن شخصيتى «دانيال» و«موردخاى» ظلتا محلاً للسخرية إلا أن «چورچ إيليـوت» كانت تأخـذهمـا على محـمل الجدية. لقـد طورت فكرتهـا التى لعبت دوراً فى تفكيـر «بلفور»(*) فى ضرورة رد

(*) لقد كان «بلفـور» طالبًا بين طلاب «جامعة ترينيتى كـوليج» وقابل «چورچ إيليوت» أثناء زيارتهـا إلى «كمبـريدج» بحثًـا عن مادة لدراسـتها عن شـخصـية «ديروندا» وأصدقائه.

الدين المعنوى لليـهود فى عنق المسـيحـيين. ولكن تجاهل اليـهود أثار اشمـئزازها حـتى كتـبت إلى «هاريت بيـتشر» تـدعوه أن يجد أنـاسًا متعلمين «يعرفون أن المسيح كـان يهوديًا» أو يفترضون أنه كان يتحدث اليونانية. «مسيحى كامل هو ثلاثة أرباع يهودى» قالت فى الرواية.

ولكنها لم تجد سوى أقلية من عامة الشعب الإنجليزى تعترف بذلك الدين لليهود، وكـانوا يرون اليهود «ناس متحجـرون بطريقة شاذة . . وكان يجب أن يكونوا شيئًا آخر».

لقد تعمدت اختيار «دانيال ديروندا» فى مجهوداتها المستمرة لتحسين صورة اليهود عند الشـعب الإنجليزى، وركزت على الحقيقـة الأساسية أن «القومية» فقط يمكن أن تحل مشكلة الشتات.

وعلى حسب كلماتها «يحتـاج العالم إلى أنبيـاء جدد من قبـيل عزرا، ومكابيـين من نوع حديث، يستطيعـون استـغلال الظروف الخـارجيـة، مع التغلب على الخـلافات الداخلية بين الـيهود، واحتـقار أعدائهم، ليـوحدوا أبصارهم (اليهود) فى اتجاه «أمة بين الأمـم» مرة ثانية، منتصرين».



الفهرس

الموضوع	الصفحة



رقم الإيداع: ٢١٧٥ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977- 09-1814-9

مطابع آمــون

٤ الفيروز من ش إسماعيل اباظة
لاظوغلى - القــاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ _ ٧٩٤٤٣٥٦



بين يدى الكتاب

- جذب عاملان رئيسيان . طوال قرون التاريخ . الشعب البريطانى للأرض المقدسة : الكتاب المقدس والمصالح الإمبريالية فى السيطرة على الطريق إلى الهند و حديثًا الحاجة لبترول الشرق الأوسط جذب - كالمغناطيس - العاملان المذكوران - الكتاب المقدس والسيف - ما لا يعد ولا يحصى من الحجاج ، الصليبيين ، وبعثات التبشير والاستعمار ، والتجّار، والمكتشفين لأرض العبرانيين القدماء
- باربارا توخمان،الحائزة على جائزة پوليتزر، تبين كيف تغلغل وتخلل ذلكما الدافعان فى وعى الشعب البريطانى، منذ أيام الحملات الصليبية وحتى اليوم
- كتبت المؤلفة عن انتصار البريطانيين على الأتراك فى الحرب العالمية الأولى ، واللحظة المقدسة لدخول الجنرال اللنبى القدس ، و إلهام اللورد بلفور إعلانه عام ١٩١٧ م، فأصبحت بريطانيا الراعى لاستعادة شعب الكتاب المقدس لأرضه.
- تصور باربارا توخمان . بمهارة . أن مشا
بذورها لقديم الزمان

LE AND
SWORD



تصميم الغلاف. أحمد محمد أحمد